Tele: @Arab_Books

جمال علي الحلاق

فنّ الإصغاء للذات

قراءة في قلق المنفتح

منشورات الجمل

جمال علي الحلاق

فنّ الإصغاء للذات

قراءة في قلق المنفتح

عمان ـ سدني
٢٠٠٢ ـ ٢٠١٣

منشورات الجمل

Arab_Books

ولد **جمال علي الحلاق** عام ١٩٦٦ في مدينة الحرية الثانية/بغداد ـ العراق. صدر له: **تقدّم أيها الخرف/ارتكاب في المعنى** (بغداد ـ ١٩٩٩)؛ **قلق المنفتح: قراءة في صيرورة السؤال**. صدر له عن منشورات الجمل: **مسلمة الحنفي**، قراءة في تاريخ محرّم، ٢٠٠٨؛ **آلهة في مطبخ التاريخ**، تاريخ سورة الفاتحة، ٢٠٠٨؛ حريق، شعر، ٢٠٠١.

جمال علي الحلاق: فنّ الإصغاء للذات
الطبعة الأولى ٢٠١٤
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© Al-Kamel Verlag 2014
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Arab_Books

للشبيه

الذي يظنُّ نفسَه وحيداً

أنا

كثيرون

Arab_Books

(١)

الغباء وحده الذي يُلقّن، لأنّه ـ وحده فقط ـ يصرّ على تكرار نفسه دائماً، من هنا أرى وأتحسّس الغباء كأكثر أشكال الثبات انتشاراً على الأرض.

لا تكن مُلَقِّناً أو داعيةً لإتّجاه، بمعنى لا تكن سلطة قامعة، كن أنت كتجربة حياتية حيّة مؤثّرة، وليكن بريقك لامعاً ومضيئاً، أَرِبك المعرفة بركوبها على غير أراضيها وحقولها، كن الإشارة التي تشير بإصبعها إليك، إشارة تصيح بأعلى درجات الوضوح: هناك، فيك أنت أيّها القارئ الذكي المريب تكمن فراشة أخرى.

المُنْفَتِح لا يُلَقِّنُ، يُحَرِّض فقط، ثمّة كائنات تحريضية تدفع الوجود البشري على الحركة، أشبه ما تكون بلافتاتٍ ضخمةٍ، وجودها احتجاجٌ متّصلٌ على كلّ أشكال القداسة والخضوع في العالم.

Arab_Books

(٢)

هذا الكتاب ـ في جوهره ـ يدفعني أنا قبل القارئ إلى المثول أمام صمتي كمتَّهم، عليّ أن أعطي لكلّ كلمة حقّها من هواء التأمّل والإنتباه، وأظنّنا لا نزن أقوالنا بميزان الذهب إلا لحظة المثول أمام قضاة يمتلكون تقرير مصائرنا، لأنّنا هناك فقط، نعرف «قيمة الكلمات» على حدّ تجربة (غريب) كامو.

هذا الكتاب تمرين في مثول الكائن أمام صمته، هكذا:

«الصمت محكمة،

وأنا المتّهم»

تمرين في تفعيل الحوار الذاتي، الإصغاء بعمق لنبرة صوتنا الداخلي الخفيّ كوحي، تنمية وقوفنا إزاء ذواتنا، كأفراد، محاصرين بحياة وموت لا غير، وعلينا أن نراهن على لعب الحياة والموت، كلٌّ منّا على انفراد، في هذا الزحام الكوني.

Arab_Books

(٣)

تبدأ بالتحقّق كذات مختلفة حين تنتبه إلى أنّك تفكّر داخل عقل الآخر، بل حين تتحسّس أنّ وجودك صدىً لذلك العقل ـ سيّان إن كان ذاك العقل سابقاً لأوانه أو متأخّراً عن اللحاق بلحظته التاريخية ـ وأنّ كلّ ما عليك هو أن تخرج إلى نبرة صوتك الداخلي، أن تُصغي لها بعمق، أن تخرج إلى رؤيتك الخاصّة جداً، أن تخرج إلى تجربتك المنفردة والمتفرّدة في العالم، وأن تُخْرِج عالمك إلى الوجود ـ كما هو ـ دون أقنعة، وبلا مواربة، لقد أحسستُ بذلك حقّاً وأنا أكتب «خارج على العقل» في بغداد عام ١٩٩٨.

Arab_Books

(٤)

الدخول إلى الكتابة أشبه ما يكون بصافرة إنذار هائلة، صخب لا يهدأ، وشبابيك تُفتح بأياد كثيرة، الكتابة ليست الكلمات التي تنهمر، بل القلق الذي وراء انهمارها، الفكر الذي يحاول تماماً مثل زلنطح (باشو) أن يتسلّق جبل فوجي، سيرتبك المُنْفَتِح كلّما فكّر بنطق الحقيقة لأنّ المحيط لم يتهيأ بعد للإصغاء إليها، ومع هذا فإنّه في النهاية يضع رأسه تحت المطرقة.

الكتابة والفكر والنطق بالحقيقة تّتصل كلّها بحبال سرّيّة مع البدايات الأولى للكتابة، مع اللحظات الأولى للتفكير، ومع أولى محاولات الإعتراف والمكاشفة والجهر، فقبل ألواح الطين السومرية، وقبل أن يبدأ أوّل من صوّر الكلمات، كان ثمّة كائن غريب إنتصب في الغابة مأخوذاً بسحر الاشعّة التي تخترق كثافة الأغصان لتفتح الطريق أمام دودة هي الجدُّ الأعلى لديدان لا تزال تتكاثر على الارض.

الكتابة والفكر يستدعيان الأرواح الكبيرة إلى الانتصاب ثانية، الكتابة قيامة وانبعاث، وهنا ـ الآن تحديداً ـ حين تبدأ أصابعي بالعزف على مفاتيح الكيبورد فإنّني أشعر بأجنحة الكثيرين ترفرف

Arab_Books

حولي، وتحثّني على كتابة ما أكتب، أجنحة كثيرة تدخل في أجنحتي، تمنحني طاقة هائلة، شحنة وعي وانفعال معا، تحثّني على التحليق أعلى وأبعد، لأنّني ـ بصورة أو بأخرى ـ أحاول هنا تحديداً إضافة جملة موسيقية للهدف الكبير الذي شعر به ذاك الكائن البعيد، أن أنقل سحر العالم ليس إلى المحيطين بي، بل إلى كائنات لم تولد بعد، وأتحسّس قدومها.

Arab_Books

إشارات أوّلية عن التمرين وغايته

لا محيط للمُنْفَتِح، ولا نهاية للسهم المنطلق في فراغ.

في الحالتين، تتلاشى اللحظة الراهنة في لجّة الزمن الممتّد، الزمن الحيّ، بل يصبحُ الوقتُ سهماً مُنقَذِفاً بنا وبكلّ الماضي نحو المستقبل، المستقبل الغامض، المريب، المشحون بالنهايات وبأطواق النجاة أيضاً.

غالباً ما يجد [المُنْفَتِح] ذاته، خارجةً على الزمن بأبعاده كلّها، لكن، يحدث أن يتهاوى الماضي بانقطاع الصلة، ويتقنفذُ المستقبل بدخول الحاضر جسد سلحفاة هرمة، هكذا، يجد الفرد نفسه محشوراً بين عدمين، عدم الماضي وعدم المستقبل، هنا، يصبح سؤال الكينونة أكبر من أن يُحتوى، ممّا يجعل الجسد ضيّقاً، وعاجزاً حتى عن بثّ ما يرى العقل، وما يُحسُّ.

تهدف هذه القراءة، كمحيطٍ كلّي لإتّجاهها، كشف جذور القلق، الذي يسيّطر على [المُنْفَتِح]، لحظة إمتلاكه وعياً مخالفاً لوعيّ المجموع، والخروج عليه.

تحاول أيضاً أن تلتفّ على [المُنْفَتِح]، أن تعيد قراءة عالمه،

Arab_Books

آليّات تشكّله، سواء على صعيد اللغة، أو على صعيد الممارسة والسلوك اليومي.

أنا معنيّ بالمُنْفَتِح، الذي تأخذه الأسئلة بعيداً، ووحيداً، داخل عالمه الخاص جدا، تماماً مثل لؤلؤة تتكثّف وحيدة داخل صدفة في قاعِ ناءٍ، أن يقيم تماماً في خلاصة [أوتنابشتم]:

«بعيداً ووحيداً عند فم الأنهار»

ستفعل الأسئلة الذاتية في لحظتنا الراهنة فعل الآلهة في الأساطير القديمة، وسيكون النقل والتنقّل ـ عبرها ـ سيّان في المكان ذاته أو في سواه، فالجسد أوّل حدود العالم من الداخل.

[المُنْفَتِح] بدءاً هو المتساءل، اللجوج أبداً، الباحث دائماً عن معنىً آخرٍ، بعيداً عن أيّ خيمةٍ فكريةٍ جاهزة، وهو الخارج إلى فضاءاتٍ تمنحه القدرة على التفرّد والتمايز، عبر ممارسات ورؤى لا تتطابق مع وسطه الاجتماعي والثقافي، قد تمنحه العزلة، بين أهله وأقرانه، لكنّه، في الوقت ذاته، الأكثر قدرة على التأقلم مع الآخرين ـ أفكاراً وأشياء ـ دون الإنضواء تحت شعار أيٍّ منهم، يمتلك القدرة على التأقلم، لكن، ليس على حساب وعيه وسلوكه، ليس على حساب تجربته في الحياة، هكذا، هو بينهم يحاول الخروج عليهم باحتوائهم جميعاً، والعبور إلى مدنٍ، تجعل من وحدة الأضداد ممكنة بلا تناحر، وبلا دم.

يقف تماماً في منطقة صفريّة ـ أو ما يمكن أن أطلق عليه صفريّة الحياد ـ تتيح له إمكانية الإنتقاء، الإنتقاء يجعله أكثر اتّصالاً

Arab_Books

بالجميع، ولأنّه لا يتطابق مع أيّ أحد أو أيّ فئة سيقابل بريبةٍ من قبل الجميع، سيتم تشخيصه من قبل الجميع باعتباره مختلفاً مريباً، هذا التشخيص سيساهم لاحقاً في انتشاره أو في كمونه، قدرته على الإنتقاء تجعله مشروع إنسان مختلف.

والقول بأنّه يقف في منطقة صفريّة لا يعني أنّه يقيم خارج الواقع الاجتماعي أو خارج التفاصيل اليومية، على العكس تماماً، فهو يطرح ذاته كمركزٍ أيضاً، لها رؤيتها الخاصّة للعالم ككلّ، وللأشياء كتفاصيل، سيبدو المُنْفَتِح عديم اللون والطعم والرائحة لخروجه على اللون والطعم والرائحة، غير إنّ هذه الإنعدامات ستكون ميزته الخاصّة، وبالتالي تجعله مريباً بكثافة.

وبما أنّ «المتوحّد يلتهم نفسه في العزلة» على حدّ تجربة [نيتشه]، شرط أن يكون الإلتهام هنا، بدلالة الإمتلاء بالذات، تماماً على حدّ تجربة [أبو يزيد البسطامي] في خلوته: «كنت قاعداً في يوم من الأيام فخطر لي أنّني شيخ الوقت»، فإنّ [المُنْفَتِح] وهو يبتعد عن المحيطات الفكرية، والأسيّجة ـ سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ـ يزداد اقتراباً من ذاته، حتى كأنّه يتطابق معها.

التطابق مع الذات هو التطابق الوحيد الذي يمكن تبريره في العالم.

حين يتطابق المُنْفَتِح مع ذاته يتحوّل إلى ثقب أسود يلتهم المحيط، يتحوّل إلى جهة بحدّ ذاته.

Arab_Books

«قريباً منّي يلفّكِ الدوار

إنّهم يتساقطون فيَّ

فتّسع

هاويتي»

ثقب أسود يلتهم الكلمات والأشياء، يُعيد هضمها وتمثيلها، ولا يُنتج إلا أسئلةً مدبّبةً، شرسة، يحاول إعادة صياغة صورة العالم مرّة أخرى، أتكئ هنا على النظرية الفيزيائية التي تقول بأنّ الثقب الأسود بداية نفق طويل يقود إلى ثقب أبيض في كون آخر، أي أنّ ما يفنى من مادة الكون في الثقب الأسود يعاد إنتاجها في كونٍ آخر عبر ثقب أبيض، والتاريخ البشري في النهاية ما هو إلا إعادة هضم وتمثيل وصياغة متتالية للأفكار والبنى الاجتماعية.

المُنفَتِح يطرح ذاته كمشروع إنسان لا يخلو من غاية، حتى ولو جاءت هذه الغاية منفتحةً، ومضبّبةً حدّ التيهان، إنّه قلق [الجدوى]، وقلق [الفاعلية]، تحاول الذات هنا أن تبرّر لنفسها أولا [وجودها في العالم].

وما أن تنتبه ـ الذات ـ إلى قولبة الأشياء داخل مسمّيات سابقة، حتى تعلن خروجها، محاولة في قتل الشعور بالفائضية، أو النفاذ من تحت ثقل الإحساس بالوصول المتأخر. الكمّ الهائل من البشر لا ينتبهون لذلك، فيعيشون حياتهم كتكرارٍ لا ينتهي.

يمكنّني أن أذكر هنا تجربة [الرصافي] الجريئة في إعادة قراءة «الشخصية المحمّدية»، كذلك تجربة داني براون في إعادة قراءة

Arab_Books

الرموز والإشارات عبر التاريخ الكنائسي، أو الرتوش والإضافات التي قام بها [حسين مردان] على نصوص «نشيد الإنشاد» المقدّس، وما تحقّقه أيضاً كلٌّ من [زها حديد] على صعيد الهندسة المعمارية، و(لحاظ الغزالي) مثلاً على صعيد الأمراض الجينية في اللحظة الراهنة.

أتحدّث عن (ذاتٍ) تسعى إلى فهم العالم خارج التعاريف المتاحة (ستيفن هاوكنغ إنموذجا)، أو حتى المساهمة في خلق العالم، أو إعادة صياغته مرّة أخرى سواء على صعيد الذهن أو الممارسة كما في تجربة نيلسون مانديلا.

ذات تكره، أو «تخاف الدخول في آخرين» على حدّ تجربة [كافكا]، إنّه خوف التكرار، أو ما يمكن أن أسمّيه خوف الدخول في فائض الوجود.

ذاتٌ تتحسّس برعب وفزع شديدين أن تكون فائضاً، تريد أن ترى بصمة إنوجادها على مفكّرة الوجود البشري كإختلاف، تريد أن ترى ضربات إزميلها على الحجر، أن تتلمّس انتشار ذائقتها في العالم، عالم يخرج من عينها، ويظلّ مسيّجا بعينها، وهذا هو الفخّ، الذي تنصبه الأشياء للذات التي ترى، وهو عينه الذي تحدّث عنه [هراقليطس] حين وصل إلى أنّ: «الطبيعة تُحب أن تتخفّى»، وهو المأزق المتكرّر دائماً مع النفوس الكبيرة، التي تحاول الخروج على الحواس [بدلالة المفاهيم الجامدة]، وعلى المسمّيات (بدلالة العقل المُحَدَد)، لتخلق عالماً بحواسٍ أخرى، ومسمّيات تختلف، هكذا يتغيّر العالم، على الأقل بالنسبة لها، ومن تقرّب منها.

Arab_Books

أتساءل أحياناً، هل أحسّ [كافكا] بالخوف من الدخول إلى [ذاته] أيضاً باعتبارها فخًّا؟ هل أدرك أنّ تجربته الذاتية شكلٌ من أشكال الخطأ؟ لماذا أوصى بإحراق أوراقه كلّها؟ هل أراد التحرُّر من الخطأ؟ لكنّه، كان أقلّ شجاعة من [أبي حيّان التوحيدي]، الذي أحرق كتبه بنفسه، وما أوصى.

الكتابة بحدّ ذاتها تجاوز لوعيها، إنّها تدوين الإصغاء للذات، وغالباً ما تكون لاحقة، أي أنّها تتمّ فيما بعد، لذا تبدو لي كما لو إنّها انتهاء تجربةٍ بدءاً، دلالة تَشَبُّع بالتجربة بالنسبة لكاتبها، واستعدادٍ للقفز بعيداً، لكنّها ـ في نفس الآن ـ إبتداءٌ للآخر باعتبارها تجربة جديدة، عليه أن يمرّ بها أو أن يتوقّف عندها.

من هنا تبدو تجربة الإحراق عند منتجي النصوص كما لو أنّها نهاية النهايات، الإنقضاض على أشجار الغابة كلّها بكتل ناريّة وأعاصير لا تبقي حتى الرماد، محاولة في نجاة الكاتب من الوقوع في فخّ التعليم، لأنّ «الحقيقة أبداً لا تؤخذ من الآخر، إنّها تنبع من الذات» على حدّ تجربة (تيتو) أحد شعراء اليابان في القرن الرابع عشر للميلاد.

وبالتأكيد فإنّ تجربة الإحراق هنا تختلف كلّياً عن تجربة من أحرق الناس كتبهم في حياتهم، [كابن رشد] و[طه حسين]، أو تجربة من أحرقهم الناس مع كتاباتهم، [كالحلاج] و[جيوردانو برونو]، أو تجربة من أحرقت الصدفة نتاجهم، كما حدث لمعمل تجارب [أديسون]، فبينما كان الناس يتهافتون لإطفاء النار، وقف هادئا، ولم يتجاوز تعليقه على أكثر من أن قال: «إنّها تجارب

Arab_Books

قديمة»، وأراني أقف قليلاً عند تجربة أديسون فأرى فيها نافذة أخرى، أو قناعاً آخر لرغبة كافكا.

يمكن قراءة الخروج المجازي لإبراهيم ـ القرآني ـ من النار سالماً، بأنّ الأفكار لا تحترق، على العكس تماماً، العملية هنا تشبه تحريك الرماد، لجمر يبحث عن نافذة، لقد بقي حيّاً كلّ ما تمّ إحراقه في الحياة، كما لو أنّ عملية الحرق شحن للطاقة الكامنة في التجربة، والتعجيل في إخراجها، نفخ الروح التي تمنح الغيمة قدرتها على المطر. سيكون دائماً ثمّة (غاليلو) يواصل الخطو على رماد المحترقين.

ما يهمّني هنا هو نظرة المُنْفَتِح لتجربته الشخصيّة، كيفية الإصغاء التي تتجلّى في كيفية القراءة وزاوية الإنتباه، علاقة الذات بالأشياء كوجود، وغياب الأشياء كعدم، علاقة الذات بلحظة السديم الأولى، عندما كان الكون إفتراضاً لم يتحقّق بعد، أو «قبل يكن» بحسب تجربة (النفّري)، الإضافة تكمن في نظرة الذات إلى علاقتها بلحظتها كمنجز، كولادة جديدة بإحساس جديد، الآخر يأتي لاحقا، الذات هي الأوّل، ثمّ يأتي الآخر / الثاني، و«الثاني متأخّر جداً» بحسب تجربة الجنوب أفريقي (ستيفن بروكس).

ربّما تكون حياة [المُنْفَتِح] أضيَق من خرم الإبرة، لكنّه يواصل التنفّس في الممكن الذي يراه، يظلّ إلى النهاية يقامر بوعي وبقصدية تامّين على رؤيته للعالم، من هنا تنمو فاعليته، إنّه لحظة في السلّم التراكمي للخبرة والمعرفة البشرية، تتجلّى في فرد، تجعله في البدء نشازا، حدّ أن يقتله أو يعتزله الآخرون، لكنّهم في النهاية، في

Arab_Books

حياته أو بعدها، يتّجهون إليه، ها هي ذي تصاميم (زها حديد) المعمارية تهبط على أرض الواقع بجرأة وثبات بعد أن تمّ تحجيمها بهندسة قرطاس.

وبعد أن كان يتحوّل إلى صنم، تعبده القبيلة وذريّتها، أصبح يأخذ شكل تمثال، يتوسّط الحدائق والساحات، تطوف حوله ذكريات إنسان، إستطاع في لحظة ما الإعلان عن إنسانيته، وهذا بالتأكيد لا يكون إلا بعد أن يتمكّن الممكن من مدّ بساطه على الكائن، لأنّ إحدى أكثر صور المُنْفَتِح انتشاراً على الأرض أن يكون نسياً منسيّاً، أو مغيّباً مسكوتاً عنه.

لا يزال العقل البشري منغلقا، أكاد أن أقول: ما دام هناك سلطة فارضة، فإنّ العالم ـ كل العالم ـ لا يزال شفاهيّاً.

وبالتأكيد فإنّ الشعور بضيق الدائرة يحدّد سعة الانفتاح، مثلما يحدّد تراكم الكبت الحدود الدفينة القصوى للحريّة الشخصيّة، مرتبطاً ذلك كلّه باللحظة التاريخية لإنوجاد الفرد أو حتى بيئته الاجتماعية، فقد تكون الدائرة عائلة الفرد ذاته كما في تجربة (طرفة بن العبد)، وقد تكون الكوكب كلّه كما في تجربة (كارل ساغان).

هذه بعض تمثّلات [المُنْفَتِح]، الذي يمكن أن يتجلّى بطرق أخرى، حسب مكانه في الزمن، واتّجاهه في التفكير والتأمّل.

وحتى تكون القراءة أكثر وضوحاً، وأكثر إحاطة بموضوعها، فقد إتّخذت من تجربة [المتنبّي] إنموذجاً لها، أحاول من جانب تشخيصي، الإمساك بالجذور الدفينة لهيكليّة التجربة الروحية عنده،

Arab_Books

والإقتراب من القلق، الذي جعله نافراً من كلّ شيء، وخارجاً على كلّ شيء، أحاول الوصول إلى إمساك اللحظة، التي تجلّى فيها قوله:

«عــدوّي كــلّ شــيء فــيــك حــتّــى
لــخِــلْــتُ الأُنْــمَ مــوغــرةَ الــصّــدور»

أن أقترب منها، وأن أطوف حولها، باعتبارها [مركزا] للمتنبّي بأكمله، بل هي اللحظة القصوى لتجلّي الذات، وإنفصالها، عن كلّ ما في العالم، حتّى الطبيعة.

لماذا المتنبّي نموذجاً؟ لم أنتبه إليه كشاعر فقط، بل كطارح أسئلة كبرى، ذاك أنّ نمو سؤال الكينونة داخل مشيمة شعرية يجعله أكثر انفتاحاً على القراءات من صياغة السؤال داخل أحماض فلسفية جافّة وصارمة، كما يجعله حاضنة مُهيّأة على تقبّل أيّ تفسير أو أيّ تأويل، لقد كانت حياة المتنبّي صاخبة وملغّزة، واضحة جدّاً ومعتمة في ذات الوقت، صراع تضادّات، أزمات نفسية حادّة أيضاً، تعالٍ يعقبه انكسار متعالٍ يعقبه تعالٍ جديد فانكسار متعالٍ أيضاً، وكان القول أعلى تجلّيات الوضوح في أمّة مبنية على القول، إذن، من زاوية ما، المتنبّي نافذة وقناع.

وكما أسلفت، فإنّ القارئ سيجد أنّ الحديث عن المتنبّي، لا يعني الانحسار عليه، بل أنّ رموزا بشريّة ـ لا يجمعها اتّجاه فكري واحد، ولا تضمّها طبقة اجتماعية واحدة ـ ستتدافع كمرجعية داعمة للقراءة، سواء على صعيد النطق، أو الممارسة، لأنّ حسّاً إنسانيّاً

Arab_Books

متعالياً يمنح الأضداد أجنحة تنتشلهم أحياناً من ضيق إنتماءاتهم، بل يجعلهم ـ على تضّادهم ـ في كفّة واحدة.

سأحاول قدر الإمكان ألا أتكئ إلا على ما نطق به فم المتنبّي، فالنطق على حدّ تجربة النفّري: «سجن كلّ امرء إذا نطق»، النطق ليس اعتباطاً، بل التحاماً، حدّ أنّ تكون الكلمات إمتداداً للجسد، أو كلماتك جسدك أيضاً.

إذن، فـ[المُنْفَتِح] يمكن أن تحدّده [الكلمة]، رغم أنّ هذا جزء من ثعلبيتها على الإيهام، فالكلمة تشير إلى تقاطعات، دون أن يقف سهمها عند اتّجاه، الكلمة بوصلة لا تتوقّف عن التلفّت، وعليه ففي أقصى اقتراب ممكن، سنكون مقيمين لا في [الكلمة]، بل في [تأويلنا] لها، أي سنكون واقعين في [فخّ] قراءتنا لها، في فخّ احتمالنا.

وبالتأكيد لا يمكن تجريد التأويل، من إسقاط تجربتنا الذاتية عليه، وبالتالي فإنّ هذه [القراءة] بأكملها تبدو لي ضرباً من السيرة الذاتية، إبتدأت معي هناك ـ منذ بداية سبعينيات القرن الماضي ـ في قرية نائية كفكرة لم تتحقّق، كان إسمها الزهيرات، ثمّ اتّسعت حتى أصبحت بلداً، وتحولّت الإقامةُ إلى هجرةٍ متّصلةٍ في الزمن الحيّ، من هنا تتقمّص هذه القراءة منهج البحث عن [الذات الشبيهة]، عبر التاريخ البشري وتوقّعات القادم.

Arab_Books

اللحظة الأولى

الإقامة في فم التيهان

Arab_Books

دخول سريع لأسئلة خارقة

انتباهات عميقة تجاه سيلان الوقت والمكان معاً، الاقتراب من الحركة/ جوهر الوجود، تحسّس التغيّر الاجتماعي الخفي في الثبات الظاهر، زحف المدن أو نموّها السرطاني، وفي الآن ذاته:

«أرى مُدُناً لا يشغِلُها الأفقُ

تزحفُ

باتّجاه السماء،

وأرى موجةً

يطفو على سطحها

أفولٌ جديد»

الإسفلت أو داء الثعلبة الذي يصيب الأرض، المدن شكلٌ من أشكال التصحّر على صعيد الشكل والمضمون، تدرّج الوعي في محاولة احتواء العالم، أو ضغطه في وجهة نظرٍ واحدة، محاولة دسّ الأشياء وصيرورتها في قانون عام، جدلية المكوث والذهاب، الموت الذي ينتصب كفضاء داخل التشكّل المعماري للحياة، المقابر على مداخل المدن، كما لو أنّها تستقبلنا بالأصول التي ذهبت،

Arab_Books

كأنّني بأكثم بن صيفي وهو يصيح على مداخل المدن الحديثة: «إنّما نحن فروعٌ ذهبت أصولها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟».

الحواس نوافذٌ لتسرّب القلق إلى الذات، الحواس إصطفاف وانحياز قسري ضدّ التكرّر، تجربةٌ حياتية منفتحة إزاء مفاهيم اجتماعية تمّ الإقفال عليها، أسياد / عبيد، سادة / خدم، رؤساء عمل / عمّال، أمراء / مأمورون، نظام العائلتية الحيواني، سلالة ملوك، سلالة أنبياء، سلالة مسحوقين، المستوى الطبقي أيضاً وما ينتج عنه من تابوات تُعيد صياغة هندسة الجنس والتخالط والاندماج. لا يزال الإغتصاب الجماعي عقاباً اجتماعياً في الهند عندما يتجاوز أحد أفراد الطبقة الدنيا حدودها.

أفراد يقضون حيواتهم أو أغلبها في سجون مظلمة خارج الحياة، أناس يُقْتَلون اعتباطاً تحت قراءاتٍ غبيّةٍ، قتل على اللون، أو على الإسم، عائلة تقنّن الأخلاق وتجعل من نفسها حارساً أخلاقيّاً مطلقا، رؤوس أموال تُعيد هندسة العلاقات البشرية، حمقى مطاعون في كلّ مكان، استهتارٌ في الإلغاء والشطب على تجارب بشرية امتلكت خصوصيّتها وقدرتها على التجاوز.

الكلّ منعزلٌ عن سواه دينياً، حياتياً، سياسياً في بوتقة المدينة، التّضاد الصارخ بين صيرورة الواقع المعاش وجمود الوعي الذي يغلّف ويحجّم انطلاق الممارسة الاجتماعية المغايرة إلى أقصاها.

هذه بعض البذور التي تتفتّح فجأة عبر انتباهةٍ تأخذ المُنفَتِح

Arab_Books

بعيداً، وفي أحيانٍ تظلّ هذه البذور كامنة في تربتها حبيسة تقنفذ البيئة الاجتماعية على ما تعارفت عليه.

المدنية نتاج مجتمع مدني، ونتاج حسّ مرهف أكثر إنسانيّة، لكنّها حين يتمّ تصديرها إلى شعوب لم تتعرّف بعد على مجسّاتها الحسيّة المدنية فإنّها ستعاني إنفصاما حادّا، لن ينتج الا تشوّهات وإعاقات تجعل الفرد سجيناً وسجّاناً في لحظة واحدة.

تنمو البنايات، ولا تنمو العقلية أو الذائقة، بل إنّ إستيراد (المدن والمدنيّة) يساهم في التسطّح أكثر مما يدفع إلى الغور في إعادة اكتشاف الحياة مرّة ثانية وثالثة، ومن البلادة بمكان أن نكرّر القول بأنّ الحياة بحاجةٍ إلى إعادة اكتشاف دائماً، بل إنّ الحياة هي غيرها مع ولادة كلّ طفل جديد، ومن الغباء أن نحرص على دسّ جيناتنا في عقول أبنائنا، لأنّنا هنا نكون كمن يزرع النعاس والتثاؤب في ذرّيةٍ قادمة.

بعض الكلام يجعلنا نلتصق بالماضي السحيق، حتى كأنّنا لا نزال هناك نركض خوفاً وذعراً ما بين أقدام الديناصورات تماماً كما في أفلام ستيفن سبلبيرغ.

سيكون للوضع الاجتماعي وللحظة الزمنية تأريخياً دورهما في تغليف الوعي وتشكّله، مع هذا يمكنني القول بوضوح صارخ: الانفتاح شأنٌ إنسانيٌ صرف، وهو نافذة الإنسان على تجاوز نفسه دائماً.

Arab_Books

الانفتاح على البداية

لكلّ بداية عروقُها الممتدّة عميقاً في أحشاء الوقت، حبالُها السرّية التي تغذّيها وتزوّدها بالهواء النقي، لكن أيضاً، قد لا يكون من السهل تماماً الغوص إلى القيعان العميقة لكلّ بداية، بل قد يكون الضباب شراعاً يقودنا داخل بياض يتكثّف، وهنا، حين يكون الوصول عصيّاً، ينبغي التعلّق بالأغصان المتاحة، والصعود إلى أعلى رؤية ممكنة عبر الضباب الكثيف.

ربّما لأنّني عشتُ حياتي بتفاصيلها يمكنني أن أشخّص بداياتي، خصوصاً تلك التي تخصّني فقط، البدايات التي لم أشرك بها أحداً، قراءاتي الخاصّة لأحساسيس مررت بها، حتى وإن كانت نتاج حدث جمعي، أتحدّث هنا عمّا لم أبح به تحديداً، لأنّ البوح إشراك، فتح نوافذ الخصوصية، بداية الآخر، يمكن أن يبدأ القارئ معي من لحظة التدوين، أو من لحظة المتبقّي من التدوين، لذا أقول في نسق الحديث عن المتنبّي مثلاً أنّ نصوص الصبا في الديوان لا تعطينا جذوراً، لا تكشف لنا شيئاً من التربة التي نما فيها قلق الشاعر، على العكس تماماً، فما يبدو واضحاً بشكلٍ غامض، فيضان القلق، حدّ أن يكتسح كلّ شيء أمامه، ليس لأنّ تجربته بلا جذر، بل لأنّها

Arab_Books

كانت أكثر خصوصيّة إلى درجة السكوت عنها، أو لعلّها تمّ فقدانها، أو محوها، ولا أضيّق القراءة هنا على قصديّة تعامل الآخر مع المدوّنة فقط، بل أفتحها على قصديّة إرادة المتنبّي ذاته إزاء حفاظه على المتبقّي.

القلق هو ابن فوضى المفاهيم، وابن غموضها أيضاً، القلق إزاء واقعٍ اجتماعي يتغلّف بمفاهيم معيّنةٍ ويسير بعيداً عنها، أو يتغلّف بها ولا تمثّله بشكلٍ تام، هناك دائماً (من / ما) يخرج على التعريفات الجاهزة، فردٌ أو حالةٌ اجتماعية خارج نطاق الوصف الاجتماعي الكلّي، هذا الجزء الخارج هو بالتحديد فشل التعريف على احتواء الكل، وهو نافذة أولى على أن ليس هناك تعريفٌ اجتماعي مطلقٌ أبداً للظاهرة البشريّة في العالم.

لا أتحدّث عن مجتمعٍ بعينه، ولا عن لحظةٍ زمنيةٍ بعينها، سيكون التاريخ البشري ماثلاً دائماً على كلّ الأرض، وعبر الأزمنة البشرية كلّها، وما أتحدّث عنه ليس هلاميّا، لكنّه أيضاً لا يتّخذ شكلاً واحداً، والمتنبّي هنا هو قناع الجمع بصيغة المفرد ليس إلا.

أتحدّث عن القلق كزقورة سومرية أو بابلية بسلالم عديدة تقود إلى القمّة، وبدلاً من أن يكون المعبد على قمّتها ليكون الكاهن أو العابد قريباً من إلهه مردوخ أو إنليل، فإنّ أسئلة الكينونة هنا ستكون قمّة القلق، وسيكون الفرد فيها ـ أو عبرها ـ قريباً من ذاته الخاصّة جداً، سيكون القلق البرج أو الزقورة التي ينفرد الفرد بذاته على قمّتها.

Arab_Books

كما لو أنّ المتنبّي ـ في صباه ـ قال [ذاته] بأكملها، ثمّ بدأ [يطوف] حولها ـ كتفسيرٍ أو كتبريرٍ لبدايته الصاخبة ـ طيلة ما تبقّى من زمن انطلاق السهم.

يحلّق القلقُ كطائرٍ، الحياةُ ذَنَبُه، الحياة آلة التوّقف في العربات الحديثة، الحياة البشرية كلحظة اجتماعية راهنة يعلن السؤال الوجودي خرفها، وانحراف مسارها. قلت لجاري الأسترالي الذي يعيش على أطراف سنته الثامنة والسبعين، ماذا لو أنّهم استبدلوا القطارات القديمة بقطارات تقطع خمسمائة كيلو متر في الساعة؟ قال: لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك، عليهم أن يهدموا النظام القديم ويضعوا أسّساً لنظام جديد.

أقول: من السهل تلمّس العاصفة في نصوص المتنبي الأولى، العاصفة التي قلعت كلّ ما أمامها، التي جعلت المتنبّي نفسه، طوال حياته اللاحقة، يعمل على ترويضها، بلُغَةٍ يمكن تحسّس الإنكسار فيها رغم شراستها.

أتونٌ قلقٌ، يتلوّى تقزّزاً كي ينجو، كما لو أنّ الآخر جَرَبٌ، إمتلاء الذات وسعتها أمام جفاف وإنحسار المحيط:

«أمط عنك تشبيهي بما وكأنّه
فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي»

«إن أكن معجباً فعجب عجيبٍ
لم يجد فوق نفسه من مزيد»

هذا التعالي لم يكن بدايةً أولى، بل ارتقاءً لغيبوبةٍ، أُسدِل الستار

Arab_Books

على تفاصيلها من قبل الشاعر تحديداً! إنّه تجاوزٌ لتورية الحركات السريّة الباطنية، لأنّ الأنا العالية جداً هنا إعلان صريح، لا أتحسّس فيه إلا انتماءً للذات دون غيرها، بعيداً عن قوالب التكرار. أنا أتّخذ الديوان كقراءةٍ منتخبةٍ للتجربة الروحية للمتنبّي من قبل المتنبّي.

أعتمد نصّ الشاعر في الوصول إلى قراءة، تحاول أن تلتصق بالتجربة مباشرة، وأن تؤسّس عليها، القراءة هنا لا تتعدى أن تكون محاولة إلتصاق بالإنفعال الأوّل للنصّ، إلتصاق بفوّهة البركان وبالحمم لحظة الخروج، على القراءة أن تتقمّص دور القابلة، أن تقف ليس بعيداً عن النص / العالم، وليس خارجاً أيضاً، تماماً، كما لو أنّني «ألصقت ذاتي بها» على حدّ تجربة [توفيق صايغ].

كان القلق الذي إحتوى المتنبّي، وأغلق في عينيه طرق الإتصال بالآخر، من السّعة بحيث إنّه يضاهي قلق النبوّة، رغم أنّ الشذرات المتبقّية لا تكفي لتأسيس رأي متكامل بهذا الإتّجاه، لكنّها أيضاً تترك باب التأويل مفتوحاً وبشراسة.

إخترقته أسئلة الكينونة، الأسئلة النافرة أبداً (من أنا؟ لماذا أنا؟ إلى أين؟)، بينما كانت الإجابات ـ التي يطرحها المحيط الاجتماعي ـ تزداد هشاشة، أدرك فوضى التناحر داخل حلقيّة ضيّقة، طوائفٌ وفرقٌ لا تقود إلى خلق إنسان، على العكس تماما تسلب الفرد إنسانيته، تجعله دمية متحرّكة، المتنبّي تحسّس الخيوط التي تحرّك الجميع، رأى غرقى الملل والنحل، لم يعد اليقين الديني عشًّا آمناً للإقامة، تمكّنت جرثومة الشكّ من إختراق حسّاسيته المتعالية،

Arab_Books

فطغت [أناه/ ذاته] على الموجود البشري، الذي تجلّى ـ بفعل تقادم المكوث داخل مفاهيم بائدة ـ قطعانا:

«ترعى بعبد كأنّها غنم»

من هنا أيضاً جاء تعاليه وعدم تردّده، في حالة التمكّن، من ركوب الناس:

«لو استطعت ركبت الناس كلّهم

إلى سعيد بن عبد الله بعرانا»

يقول [الصاحب بن عباد] في تفسيره لهذا البيت: «أراد أن يزيد على الشعراء في وصف المطايا، فجاء بأخرى الخزايا، وفي الناس أمّه، فهل ينشط لركوبها؟ وكذلك الممدوح لعلّ له عصبة لا يحبّ أن يُركَبوا إليه».

أقول: فات [ابن عباد] أن يقرأ البيت خارج نطاق الذائقة الجمعية، فالمتنبّي هنا، غير معني ـ حتى ـ بذائقة الممدوح، إنّه يقف أمام ذاته فقط، هكذا يتحوّل الآخرون إلى أشباحٍ وأوهام.

كما لو أنّه يقف أمام مرآة، ويلقي على صورته الهبوب والرياح، بل يرى ذاته القصوى التي لا تعكسها المرآة.

المُنْفَتِح يتّجه إلى أقاصيه الخاصّة جدا، يقترب من الإمكانيات الكامنة فيه والمتوثّبة دائماً للخروج والقفز بعيداً، يتّجه إلى الباطن تماماً، الذي لا يشكّل الظاهر إلا خرم إبرةٍ للتنفّس منه!

كان بإمكان [ابن عباد] أن يقرأ البيت هكذا:

Arab_Books

«لـو اسـتـطـعـت ركـبـت الـنـاس كـلّـهـم

إلـى (حـيـاةٍ أراهـا الآن) بـعـرانـا»

ف [سعيد بن عبدالله] وسيلةٌ لا غاية. يشير إلى ذلك، البيت الذي سبق هذا البيت تماماً:

«لا يـجـذبـنّ ركـابـي نـحـوه أحـدٌ

مـا دمـت حـيّـاً ومـا قـلـقـلـن كـيـرانـا»

وبالتالي، يكون الممدوح مركوباً أيضاً، وهذا ما تعوّده الملوك والأمراء من المتنبّي، عن رضاً وطيب خاطر. لقد كان خارج محيط الذائقة الجمعية، وكان الآخرون يطاردونه من داخلها! وكان ابن عباد واحداً منهم!

بدأت غربة المتنبي تنمو، لا كشجرة، بل كغابة بمصاعد كثيرة، تتسلّق بعضها بعضا، أصابه سرطان الشكّ، الذي راح يفتك بمضامين القيّم والأعراف لديه، بدأ يتلمّس إنهيار الأفكار، والخُلاصات، التي جاهدت البشرية، عبر نفقها الطويل، أن تجعلها ضوءاً لها في العماء الكوني، بلغت فوضى التعريفات من الحدّ أن باتت الحيرة لديه هي الربّان.

كما لو أنّني أتحدّث، عن التجربة الروحية [لأبي العلاء المعري]، أو حتى [توفيق صايغ]:

«حيّرتني إلهي

حيرتي تشفع لي»

Arab_Books

أو عن آخرين، هم العمود الفقري، لقائمة من كانوا بشراً على الأرض.

إنّها لحظة الصفر المطلق ـ الصفر الحيادي ـ أو التلفّت بلا أين؟!

Arab_Books

دماغ مؤجل

أن تقف على لا شيء، وأن يتجرّد الواقع من تراكم الخبرة، أن تستدير حركة المجتمع لتبدأ من الصفر دائماً، ينهار البناء قبل أن تتشكّل الذائقة، وقبل حتى أن يُرَسِّخ اتّجاهاً معرفياً، تتفرّغ الإشارات من دلالاتها، أو تنبثق إشارات فارغة من أيّ معنى، قد تكون الإشارة رجلاً أو حزباً أو أمّة، وقد تكون علامة ضوئية لتنظيم حركة المرور، فهذا يعني كما لو أنّك دماغٌ في أحماضٍ في زجاجة، دماغٌ مؤجّل، لكنّه أيضاً في اللحظة ذاتها متأهبٌ للإنقضاض على معنىً مغايرٍ للحياة، يعني أن تكون باحثاً ذهنياً بلا مَيلٍ عاطفي تجاه تعريفٍ ما أو قراءةٍ ما للوضع الاجتماعي الذي أنت فيه، أو لوجود الإنسان في العالم ككلّ.

لحظةٌ عدميةٌ هائلة لا يمكن النجاة منها الا بقانون الإرادة، أن تعترف بتجربتك الخاصّة، وحقّك الخاص في الحياة، وبأنّك لا تمثّل أحداً سواك، أنت ذاتك فحسب، وأن تنحاز لها، هكذا، الذات حاضر يتقدّم، إنّها المُستَقبَل الآن، فالإنحياز للإمكانيات الكامنة للذات هو انحياز الحاضر للمستقبل، من هنا يبدأ العالم

Arab_Books

القادم بالتشكّل، والظهور. يجب أن نعي أنّ المستقبل جنين يرتبط بحبل سرّي مع رغبتنا على الانفتاح والتحرّر.

يمكنني هنا أن أتحدّث عن تجربة خاصّة جداً، لقد مررت بذلك حقّاً، عندما وجدتني وجهاً لوجه مع جنين المتحف الطبيعي في جامعة بغداد، حدث ذلك عام ١٩٨١، كان الجنين في شهره الخامس أو السادس، محفوظاً داخل أحماض في زجاجة، كانت المرّة الأولى التي أشاهد فيها جنيناً بشريّاً مُجهضاً، أرعبتني التجاعيد التي تشير إلى كآبة حادّة، لم يكن وجهه وجه جنين، كان كائناً بشرياً في الستين أو في السبعين أو في المائة من عمره، هل يمكن للإقامة في الرحم أن تكون بهذا الثقل؟ لماذا توقّف عند هذا الحدّ؟ ما الذي أعاقه عن الخروج؟ لقد خرج، لكن، ليس كما لا بدّ أن يكون، لم يرفس باب الرحم، لم تفتح يده ستائر العتمة، ولم يخترق الضوء عينيه.

استقرّ الشكل في رأسي، أصبحت أنا الرحم، بدأ الجنين / السؤال ينمو، وبدأت أحسّ بحركة الجنين في داخلي، الجنين الذي أصبح توأمي في زجاجةٍ هائلة هي العالم، لم يحدث ذلك مثل صاعقة، بل تشكّل أيضاً كجنين، كلّما شعرت بالضيق تجلّى الجنين وأحسست بالأحماض، فألجأ إلى المرآة أراقب عيني واستداراتها، أتحسّسني، كما لو أنّني أحدٌ آخر، أحدٌ يريد أن يخرج، يريد أن يولد، وفي النهاية خرج نصّاً، صعّادة هائلة بالنسبة لي، تجربة في الوعي وفي الحسّ أيضاً، عندما يتحوّل اليوم إلى سائل حامضي،

Arab_Books

ولا نجاة من الزجاجة إلا باحتوائها، لذا ختمت به مجموعتي «صعّادات»:

«عالقٌ في الذهن كتوأم

هذا الحنين

ليس غريباً تماماً

طالت عليك شهور الحمل

أنا قلقٌ

لسببٍ أجهله دائماً

ربّما

لأنّك معي

في الزّجاجة

وفي الأحماض

لكنّني واثقٌ تماماً

أنّنا نولد

يوماً

ما»

كتبت النصّ النهائي عام ١٩٩٧ بعد إجهاضات عديدة، حتى النصّ أصرّ على أن لا يولد ولادة طبيعية، كان العراق لحظتها مسيّجاً بحصارات من الداخل ومن الخارج معاً، وكنت في الزجاجة أتحسّس الأحماض، ولم يكن الجنين فقط، بل العالم كلّه في

Arab_Books

الزجاجة، حتى النجوم والمجرّات، كانت الزجاجة الفخّ، وكنّا جميعاً في الفخّ، نبحث عن مسامة للنجاة.

قد تكون الزجاجة دلالة لأيّ فكرة، أو لأيّ ممارسة اجتماعية، أو حتى لكوكب، وقد تكون الأحماض هي الآليات التي تفرض على الذات عقمها القسري، تعمل على إصابة الذات بالشلل، غير أنّ الإحساس بالعوق يبقى تجربة شخصيّة جداً، فما أراه شللاً قد يراه آخر نافذة للحياة، لكنّني أتحدّث عن تجربة حياتية تتحسّس العوق داخل النظام القسري، وتحاول بإمكانيّاتها أن تخرج على النظام، من هنا قد تطول إقامة الدماغ في أحماض الزجاجة لعدم توفّر إمكانية الخروج، ولعلّ الكثيرين يعبرون الوقت وهم في غيبوبة الانتظار، في انتظار لحظاتهم الخاصّة، أو في انتظار حيواتهم المؤجلة. في النهاية، الإعلان عن الذات شأنٌ فرديٌّ، وشخصيٌّ جداً، على عكس الإقامة في الغيبوبة فهي شأنٌ جمعي.

الذي يعجّل في إنهاء غيبوبة الدماغ، لا السؤال، بل اتّجاه السؤال.

إتّجاه السؤال هو منطقة [إلتقاط] الذات من هوّة اليقين الاجتماعي أو اليقين الجمعي، والقلق هو مخاض الإلتقاط، والمتنبّي عبر أسئلته المدبّبة الأولى «إلتقط ذاته» على حدّ تجربة [أحمد سعداوي].

عندما يزداد ضغط الخارج على الذات، يبدأ صراع الأنا التي لا تريد أن تكون فائضاً بشرياً، لا تريد أن تكون عدداً على المدرّج،

Arab_Books

بل تريد أن تكون اللاعب الأساس / رأس الحربة، مارادونا مثلاً، من هنا تكون كثرة (الأنا) في نصوص المُنْفَتِح نوعا من الإجابة على أسئلة تعيش معه، فيه، في جدله الذاتي، أو في صراعه مع التابوات كأشخاص، وكأفكار عبر ممارسات يومية. أقول جهاراً: توهّج الأنا شرط التحقّق.

Arab_Books

الخروج إلى الذات، أو أنا وصلتُ إليّ

الذات، بئر الخصوصية العميق، وبرجها العالي أيضاً، الصورة التي لا تتطابق، الإشارة التي لا تشير إلا إليها، إلى نفسها، إلى جوهرها تحديداً، الإشارة التي تخرج على نظام الإشارات، التي تخلق بلبلة في التأويل وإرباكاً في الفهم، التي وجودها يتطلّب إعادة قراءة النظام الإشاراتي مرّة أخرى، إنّها تماماً: (لقد وصلتَ إليّ)، ولأنّني المعني الأوّل في قراءة الإشارة، فإنّها تقول بدقّةٍ أكثر عمقاً: (أنا وصلتُ إليّ).

الذات هي الخروج على العقلية الجاهزة، والبحث عن منافذ في جدران الواقع الإسمنتي، «هناك ٣٦٠ درجة لماذا نتقيّد بواحدة» على حدّ تجربة المعمارية [زها حديد]. الذات دخول في تحطيم الأصنام ـ سواء أكانت أفكاراً أو ممارساتٍ اجتماعية ـ خلع التقديس، والرقص على جليد التابوات، هي التيهان بدءاً ـ التيهان ضرورة ـ ثمّ الإلتفاف حول مركزها كمغزل، أكتب هذا وأتخيّل درويشاً يتّخذ من نخاعه الشوكي مركزا للرقص والطواف، بل يصعد الخيال إلى حدّ أن أتساءل: هل المجرّات دراويش تطوف حول نخاعها الشوكي أيضاً في فضاءاتٍ لا متناهية؟

Arab_Books

ليس حتماً أن يؤدي الخروج إلى وصول، ذواتٌ قليلة تلك التي تصل، أو تتوهّم الوصول، الوصول خدعة.

«على حافّة الكون

ألقي سنّارتي

في مياه العدم

* * *

هذه المياه

كيف أصطادها

لأسماكي؟»

كما لو أنّ الوجود البشري يتجلّى في خلق وهم، تبلغ فيه الذات إنوجادها وفناءها.

ينبغي النظر للأفكار على أنّها نماذج لمشاريع بشرية داخل صيرورة النشوء والإرتقاء، يمكن أن تكون إجابةً مؤقتةً، أو تبريراً عقلانياً خاصّاً لإشكالية سؤال الكينونة: من أكون؟

ينبغي أن ننتبه إلى نمو السؤال ذاته، إنّنا نكرّر الكلمات ذاتها، لكنّنا لا نسأل ذات السؤال، السؤال الواحد لا يتكرّر، تماماً كالنزول إلى نهر هيراقليطس، ثمّة جريان للوقت يجعل السؤال إمّا طفلاً أو هَرِما، هكذا، المجهول يتّسع، بل يزداد عمقاً وكثافة مع الوقت، مع كلّ تراكم معرفي أو خبراتي تجريبي فإنّ المجهول يأخذ هويّة

Arab_Books

أخرى، تجعل سؤال الكينونة مختلفاً أيضاً، السؤال يتجدّد دائماً، هكذا، مع الوقت يصبح السؤال ليس هو.

وبما أنّ الفكرة إنموذج لمشروع إنسان، فثمّة الكثير من الأفكار قد تحقّقت عبر الأفراد والشعوب التي تبنّتها، بل إنّ الحضارات البشرية، التي سادت وبادت، هي في الأصل مشاريع بشريّة توفّرت لها الظروف المناخية والاجتماعية التي جعلتها تنمو وتزدهر، ولعلّها بادت حين إنبثقت مشاريع بشريّة أخرى أكثر عقلانيّة، أو أنّها امتلكت من مبرّرات الوجود ما يجعلها تسود بعد أن كانت أدمغة مؤجّلة في أحماض الزجاج مثلا.

وحركة التاريخ البشري التي تبدو منقادة لمؤثّرات اقتصادية، جنسية، سياسية أو ثقافية، هي في النهاية حركة تخضع أحياناً لمبرّرات غير عقلانية تماماً، فيمكن أن يعقب التقدّم والانفتاح تراجع وإنخساف داخل بنية المفاهيم، هكذا، فكما تنهار المجرّة إلى ثقب أسود يلتهم الضوء كلّه، كذلك تنهار الأمّة إلى عائلة تفرض قراءتها على الكلّ، فالحياة لعبة تتحكّم بها النماذج المطروحة على صعيد الواقع، وكلّما كان البناء الثقافي للمجتمع قائماً ومتأسّساً على خرافة كلّما كان أفراده أسرع في الركض خلف تجارب مسطّحة أو فقاعيّة. وكثقافة عربية فإنّ تاريخنا يحفل كثيراً بنموذج (عيينة بن حصن) أو «الأحمق المطاع» بحسب تعبير محمد بن عبدالله.

رؤية سريعة للتاريخ البشري تجعلنا نعتقد أنّه محض ركض

Arab_Books

خلف فقاعات وهميّة، دون أن نغفل لحظات التوهّج التي حاولت وتحاول انتشال الإنسان إلى فضاءات أخرى.

لكن ما الذي يجعل الذات أكثر قدرة على التحقّق؟ ما الذي يُخرِجها من القوّة إلى الفعل؟ ما الذي يجعلها تنزل إلى الشارع اليومي؟ تمشي في الأسواق، تتحسّس خروج الضجيج البشري على المعنى، وما المعنى؟

Arab_Books

آدم لا يفكّر بالعودة إلى الجنّة

الذات تبدأ، أو تتأسّس في كلمة [أريد]. أن تريد، يعني أن تعي اتّجاهاً ما، أن تنطوي على شيءٍ ما يخصّك تماماً، أن تخرج على شعارات، قوانين، أو سنن تطالبك بالتنازل والإنضواء.

أن تريد، يعني أن تكون بين الآخرين، لكن خارج أسيجتهم.

الخروج الأسطوري لآدم من الجنّة يصلح أن يكون مثالاً، الله ـ داخل الأسطورة ـ ممارسة اجتماعية مكتملة، أمام ذات تحاول البحث عن فاعليتها خارج الهواء المتاح. الإكتمال المسبق هو قمع لتجربة لم تنفتح بعد على كلّ احتمالاتها.

بحسب الأسطورة ـ سواء في التوراة أو في القرآن ـ لم يتحقّق آدم ـ كذات ـ داخل الجنّة، كان دمية متحرّكة فقط، تسجد له الملائكة دون أيّ وجه حق، لم تكن ثمّة شخصيّة لآدم في الجنّة، وبالتالي لم تكن له ميزة ما، كان بلا نكهة.

تتحدّث الأسطورة عن الطين والنار، لكنّها لا تتحدّث عن آدم كهويّة يمكن أن نقف عندها، إنّه محض طين يتحرّك، لذا كان سجود الملائكة له يشبه تماماً إستلامه أنواط شجاعة عن بطولات لم يقم بها، أحب التركيز هنا على أنّ فعل السجود في العالم الأبدي أبديٌّ أيضاً،

Arab_Books

فسجود الملائكة لآدم لن يكون لمرّة واحدة، بل سيتكرّر دائماً، إنّه أمر إلهي، أمر يأخذ صرامة التحيّة والاستعداد اللذين يؤديهما الجندي أمام آمره العسكري، هكذا سيتكرّر المشهد دائماً، نظام عسكري صارم خصوصاً إذا ما كان الأمر صادراً عن ذات إلهية.

من هنا كان على آدم أن يكسر رتابة البقاء داخل ملهاة لا تمتّ له بصلة، ملهاة، لكنّها بفعل التكرّر تتحوّل إلى مأساة، كان عليه أن يكسر صرامة الإنضواء، أن يتحقّق.

لقد تمّ إقصاء القراءة التي تؤدي إلى أنّ فعل الخروج كان قد تمّ برغبة حقيقيّة مقصودة، أقول: تمّ إقصاء القراءة بحيث نجد أنّ آدم وقع تحت تأثير غواية خارجية نتيجة اتّحاد المرأة والشيطان، ويمكن بسهولة قراءة النصّ الأخير للأسطورة وفق آليات التحليل النفسي الفرويدي بإنّ علاقة جنسية حميمة ربطت بين المرأة حوّاء وبين إبليس، وأنّ الأفعى الوارد ذكرها في النصّ، التي دخل عبرها إبليس إلى الجنة دون أن يشعر به حرّاس بوابة الجنة، ودون أن تتحسّسه كاميرات الرقابة على المداخل، أقول أنّ الأفعى إشارة إلى العضو الذكري الجنسي، وعليه فإنّ النصّ يسكت عن علاقة جنسية كان نتاجها الابن الأوّل لحوّاء، وأنّ الصراع اللاحق بين الأبناء كان نتيجة لذلك.

نموذج آدم في الجنّة متكرّر بكثافة في الحياة البشرية، بل تبدو الأسطورة تجذيراً لهذه الفئة من الناس، الذين يرثون القمّة الاجتماعية، ليس لأنّهم ذوات امتلكت ما يجعلها تضيء، بل لأنّهم أبناء أو أحفاد رجل أو طبقة اجتماعية معينة، أن يكون النسب

Arab_Books

والإنتساب كملكية خاصّة يتمّ توارثها، ولأنّها تجارة رابحة تراهم دائماً في هوس تبييض أشجار النسب من أجل الحفاظ على نقاء الدم الملكي، والتطبيل مسبقاً لأولياء عهد وملوك قادمين، أو هوس تنقية الدم النبوي، والتطبيل للهالة الروحانية التي تحيط برؤوس أبناء الأنبياء، كلّ ذلك يتمّ بدافع الحصول على أنواط شجاعة عن بطولات لا تربطهم بها سوى صلة النسب.

وبالتأكيد فإنّ هذه النماذج لا تفكّر أبداً في مغادرة الجنّة، بل على العكس تماماً، تحاول إلصاق الخطيئة بالأب البعيد، مع ترك فسحة الغفران له من أجل التحضير لعودته ثانيةً إلى الجنّة، أو جرّه جرّاً إليها برغم أنفه.

يمكنني أن أشير هنا إلى طفولية الرغبة المجتمعية في إعادة الخارج عليه ولو بالإكراه، أو حتى محاولة جعل نهاية الخارج على الاعتقاد تبدو أكثر ليونة أو تنضح إيماناً بما قضى حياته رافضاً له، فبينما يجد الرواة قصيدة الرجوع إلى الله (تحت وسادة) أبي نواس، تصرّ شقيقة الشاعر الرائي آرثور رامبو على أنّه في لحظات إحتضاره الأخيرة عاد إلى المسيح.

Arab_Books

تولستوي وتعديل انحراف الأسطورة

أحبّ التركيز هنا على تجربة تولستوي لأنّها تصلح أن تكون مثالاً فريداً في قراءة وتعديل أسطورة آدم، وستكون تجربة أيام محطته الأخيرة أثقل وأهم قرار إتّخذه على صعيد تجربته الذاتية، الخروج الإرادي من القصر، من الأرستقراطية، من الأوسمة الزائفة، والاتّجاه بعيداً، إلى محطّة نائية على الطريق، خرج تولستوي، لكن ليس تحت ذريعة الإغواء كما في أسطورة آدم، لم يقع في الفخّ، ولم تلتف عليه حبال الغواية، على العكس تماماً، كانت المرأة في تجربة تولستوي هي العائق أمام تحقّق الذات، كانت حوّاء هي المحرّض الأساس في إنتباهة آدم لذاته، وإذا ما تبنّينا الأسطورة كما هي، بحيث تكون حوّاء ضلعاً من آدم، فإنّ قراءة متأنّية للنصّ تجعلنا نصل إلى حقيقة مفادها: في داخل كلّ فرد هناك جزء خارج على الإنضواء، وأنّ خروج حوّاء من جسد آدم هو إعلان بتحقّق الجزء الخارج على الإنضواء، وبالتأكيد فإنّ تحقّق هذا الجزء كان لاحقاً لأمر السجود، إذن، حسّ الإعتراض على الملهاة السوداء بدأ مع دخول حوّاء إلى النصّ، مع حوّاء سيلتقي آدم بشكل دائم مع الجزء المعترض، النافر، المحرّض.

Arab_Books

وفق تجربة تولستوي كان الجدل الذاتي هو الدافع الحقيقي للخروج، وكان تولستوي يُصغي بعمق ويرى ويتحسّس غليان المعنى الذي تنتجه التجربة، تجربته الخاصّة بين الآخرين، ربّما طالت فترة التردّد لديه، فالتنازل عن الأوسمة ليس أمراً عاديّاً، يمكننا أن نتحسّس الرغبة منذ بداية كتابة «آنا كارنينا»، أي أنّ قلق القرار إمتدّ لأكثر من ثلاثين عاما، إلا أنّ تولستوي حسم الأمر أخيراً، قرّر أن يخرج، لم تطرده الأرستقراطية، بل هو الذي تنازل عنها، أو نبذها، نبذها بوعيٍّ حاد، وبقصديّة عالية جداً. هكذا ينبغي تعديل أسطورة آدم.

هل صدفة أن يموت آدم على الأرض بعيداً عن الجنّة، وتولستوي في المحطة بعيداً عن دفء أسرّة القصر؟ موت تولستوي الطبيعي كان رمزاً وإشارة لولادة أخرى، لقد حاولت زوجته صوفيا أن تؤخّر خروجه إلى النهاية، لكنّه قفز بعيداً عنها، ومات خارج دائرتها.

من السهل جداً أن أتصوّر سعة واتّجاه الإنفعال الإلهي لحظة خروج آدم على الطوق، إنّه ذاته انفعال صوفيا لحظة خروج تولستوي من البيت، إحساس بالهزيمة، جرح الأنا العليا، إنخساف داخلي لزلزلة غير متوقّعة. لقد كسر كلّ من آدم وتولستوي بخروجهما توقّعات الآلهة.

خرج آدم على الإنضواء، خرج على الخيوط التي كانت تلعب به، خرج على البطولات الزائفة، وعلى الأوسمة التي لا يشعر

Arab_Books

باستحقاقها، خرج إلى ذاته، أراد أن يتحقّق، وقد تحقّق خارج الجنّة، ولا أظنّه يفكّر بالعودة إلى دور الدميّة وقد لامس الحريّة.

حريّة اتّخاذ القرار هذا ما يجب إضافته إلى الأسطورة، الحريّة تجعل القرار مقصوداً، حريّة وقصدية القرار تعديل جذري، تعديل انحراف التوقّع، فتح نافذة أخرى مغايرة تماماً للقراءة المقدّسة، رفع الهالة عن الأسطورة ووضعها ثانية تحت عدسات المجهر، أو نبش ترابها بمعاول أكثر حيادية، هذا التعديل سيقود بدوره إلى تعديلات جذرية في الكثير من المفاهيم الاجتماعية التي يتمّ تبنّيها عبر التوارث، وسيقود إلى ذبول وانقراض طبقة اجتماعية كاملة، وجودها ـ كان ولا يزال ـ عالة على المجتمع كلّه، وعالة على الحياة.

ينبغي قراءة الإنضواء كخيانة للذات، أقرأ الإنضواء بدلالة التنازل عن الذات، أو تأجيلها إلى أجلٍ غير مسمّى، إنّها، تماماً، الوقوع تحت ثقل مقولة الإنجيل: «من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه». لقد أدرك [جيته] هذا المطبّ بقوله: «كن رجلاً ولا تّتبع خطواتي»، لكن، يجب على الذات المُنْفَتِحة أن تلتزم بأطروحتها، حتى يتبيّن لها ـ من خلال تجربتها الخاصّة ـ غير ذلك، فعندها يكون الإلتزام خطأً.

الخطأ إحساس شخصي جداً، لا يمكن صبّه في قالبٍ واحد. لعلّه يقترب من تجربة [حسن السلمان] حين يقول:

«أما الخطيئة فرئةٌ

تتنفّس...

من رئةٍ أخرى»

Arab_Books

الخروج إلى الذات، هو الإصطفاف مع أشباه لا يتطابقون معك، لكنّهم ينفعون حافزاً لإثارة السؤال وديمومة القلق لديك، ذاك أنّ الطمأنينة وقوع في الفخّ.

سيقف آدم مع الخارجين على الولاء، وعلى التكرّر، وبهذا سينتفض من جديد، لكن ليس ضدّ (الله) كممارسة اجتماعية صارمة وقامعة، بل ضدّ أحفاده أيضاً كورثة غير شرعيين، وكسلوك وممارسات اجتماعية دون معنى.

إلا أنّ الذات تظلّ كامنةً كقوّة ـ على حدّ تعبير أهل الكلام ـ وغير فاعلةٍ إذا لم تلتصق كلمة أريد (كنيّة) بإرادة تخرجها إلى (الفعل).

الحاجةُ موجودة،

لكنّها غير معلنة،

إذن فالحاجة غير موجودة.

كذلك لا يكون للشعور وجود حتى يتمظهر. القضية تكمن في الإعلان عن الحاجة، دفع الرغبة في التغيير إلى السطح، أن تُرى الأسماك كلّها على سطح الماء تحت الشمس، كما حدث في ساحات التحرير هنا وهناك على الأرض، لكن، ينبغي أن نعرف ماذا نريد بدءاً، أن نتحسّس الحاجة أو الرغبة، وندرك اتّجاهها، حتى لا يسبقنا اللصوص اليها كما حدث ويحدث دائماً.

أريد القول هنا أن تجربة تولستوي كانت تعديلا مهما لتجربة آدم

Arab_Books

كما تمّ تدوينها، بل أنّ تولستوي جعل خروج آدم أكثر منطقية، وأكثر إنسانية أيضاً.

هذا المثال يمنحني وضوحاً أعلى وأدقّ حول الدور الحقيقي للمنفتح في العالم، تجربة تولستوي كانت مفتاحاً مهمّاً للكشف بأنّ وظيفة المنفتح القصوى هي إجراء «تعديل لانحراف قديم للروح» على حدّ تجربة سليمان جوني.

وبصورة أكثر دقّة، إنّنا لا نعيش (في العالم)، بل نعيش داخل قوالب أسطورية نتوارثها عن العالم، كلّ بيئة اجتماعية تحاول إعادة إنتاج أساطيرها التي تؤثث مناخها الثقافي عبر أفرادها، أي أنّنا كشعوب وأفراد نحاول، في حالة الغيبوبة الكبرى، أن نكرّس إنتاج أساطير الماضي كما هي عبر التشبّث بأخلاقياتها، وعليه، فإنّ المنفتح لا يتبنّى الأسطورة كما هي، بل يتعدّى ذلك إلى درجة إجراء تعديل داخل القراءة ذاتها، خلق أسطورة أخرى أكثر انفتاحا، تمنحه القدرة على التغيير والقفز بعيداً.

Arab_Books

أنا وسارتر وبودلير

لطالما حاولت أن أنتبه للأسطورة التي أعمل شخصيّاً على تعديل انحرافها، أعيد قراءة حياتي بكلّ تفاصيلها منقّباً عن ما يربطني أو يوصلني إلى شيء ما، فأجد قفزات عديدة، متقاربة ومتباعدة، يمكن أن تكون كلّ قفزة منها أساساً أو جذراً للحظة معرفية مختلفة، دون أن تكون أسطورتي أو قالبي النهائي.

أتحدّث عن تجربة (ذاتي) في العالم، وعن إختلاف وعيي لها، واختلاف وعيي بها.

أرى تناسل التشظّي، إنكسارات عديدة مترادفة أحياناً، يعقبها إمتلاءات وصعود، هذا التباين، ليس في الإحساس فقط، بل في قراءة العالم أيضاً، جعلني أتردّد دائماً في حسر هويّة الأسطورة، أو حتى تحديد ملامحها، فليس غريباً أن يكون هناك داخل تجربة حياتيّة واحدة هضماً وتمثيلاً لمجموعة من الأساطير، هكذا، أن تكون حياة فرد واحد عبارة عن قفز متواصل من أسطورة إلى أخرى، غير أنّ الهويّة في النهاية هي الأسطورة الغالبة.

بإشارة من (سارتر) وهو يتحدّث عن (بودلير)، إعتبر تجربة الأخير تكريساً لأسطورة (نرسيس)، قال: «موقف بودلير الأصلي

Arab_Books

هو موقف العاكف على نفسه يتأملها كنرسيس الأسطورة»، أقول: هذه الإشارة منحتني إنتباهة شديدة نحو الأسطورة ضالتي.

لقد دلّني سارتر على الخطوة الأولى لهذه القراءة، لكن بعيداً عن ما أشار إليه، سرعان ما رأيتني أختلف معه، إنحرفت قراءة سارتر لبودلير قليلا، غير أنّ هذا الانحراف القليل جعل القراءة ـ من وجهة نظري ـ غير ناضجة وأفقدها عمقها، جعلها سطحيّة كوجه نرسيس المنعكس على سطح الماء، خلل القراءة جاء من إضافة حرف التشبيه (الكاف) على نرسيس. أريد أن أقول هنا: لم يكن بودلير نسخة تامّة من أسطورة نرسيس، بل كان خروجاً عليها، هذا الإحساس جاء نتيجة تجربتي الخاصّة في قراءة ذاتي:

«أنا معنيٌّ بذاتي

أمّا هم فمعنيّون بذاتي»

لا يمكن قراءة (تكريس الذات) هنا على أنّه ضرب من الأنانية، على العكس تماماً، الذات تصعد إلى الواجهة كعلامة إستفهام إزاء غموض الكون وغموض العلاقات الاجتماعية، فهم الذات يقود إلى فهم الكون ومن ضمنه العلاقات الاجتماعية، وعليه فأنا حين أقرأ ما يحدث متكئاً على وجهة نظري الخاصّة فإنّ ذلك يعني، بالنسبة لي، أنّ تجربتي تنتج وعيها، وبالتالي فإنّني أفهم وجودي في الحياة وفي العالم من خلال إنوجاد ذاتي بدءاً، إنّني أفهم العالم من خلال ذاتي، وهذا لا يعني حبس العالم في الذات، مثلما لا يعني إلغاء

Arab_Books

الآخر، إنّه إعطاء الذات فرصة الفهم إتكاء على تجربتها الخاصّة خارج نطاق التكريس المؤسّساتي للفهم.

ثمّة ثيمة أخرى في التركيز على رؤية الذات دائماً، هي غير التباهي بها، تكمن في جعلها تحت المراقبة أيضاً، مراقبة الوعي للذات إزاء مراقبة الذات لوعيها، ثمّة رقابة متبادلة، لكنّها رقابة محفّزة وليست مكبّلة أو مكمّمة، أريد أن أقول هنا أنّ هناك رغبة دائماً أيضاً بألا تكون الذات أقلّ ممّا هي، وتركيز الإنتباه عليها هو في الجذر البعيد محاولة في كشف إمكاناتها الكامنة، العمل على توسيع رقعتها في الوعي ومن ثمّ توسيع رقعتها في العالم، لن يخلو الأمر من حبّ الذات، لكنّه هذه المرّة يأتي بزيٍّ أكثر أناقة وسموّاً، هنا والآن، يتفوّق على إحساس (حبّ الذات) إحساس آخر جديد إنّه (إحترام الذات)، هذا هو التعديل الجديد على انحراف الأسطورة، احترام الذات هو الخروج على الأسطورة، هو اللحظة الجديدة التي تستعيد فيها الذات مكانها الحقيقي، احترام الذات يجعلني أطير فرحاً بها.

الفرح بالذات ليس مرضا، لكن ستبدو عليه سمات المرض مباشرة حين يخلو هذا الفرح من عمق الفهم، حين تمرّ به الأيام والأحداث دون أن يشكّل هذا المرور إضافة معرفية، أو دون أن يؤثّث الخبرة الحياتيّة للفرد الفرحان.

في داخل الأسطورة سيبدو (نرسيس) سطحيّاً دائماً تماماً كانعكاس صورته على سطح الماء، لكن، وأنا أنظر إلى العالم أرى ذاتي متواشجة فيه وعليه، ذاتي تنمو مع كلّ تجربة لي وللعالم، ذاتي

Arab_Books

تختلف مع بداياتها، أحياناً تتقاطع إلى حدّ الإنفصال، تنزع جلدتها الأولى، الإنفصال عن الذات لا يمكن أن يكون تكريساً لأسطورة نرسيس بل تجاوزاً لها، هذا ما حدث مع بودلير أيضاً، كان على سارتر، وهو ذئب المعرفة، أن ينتبه لذلك.

سأظلّ أحدّق مليّاً في إنعكاس ذاتي على سطح المعرفة، لأنّها النافذة الأولى والرئيسة في تواصلي مع العالم. التحديق في إنعكاس الذات يشبه إصطياد السمك، لكنّني فيه أكون معنيّاً بسمكة واحدة، أصطادها دائماً، وأعيدها إلى الماء كسمكة أخرى.

Arab_Books

عودة إلى المتنبّي

هل كان المتنبّي في لحظة الخروج إلى ذاته يعلم ما يريد؟

هذا السؤال طُرِح عليه حقاً، لقد بدا غامضاً، ومريباً أيضا!

«يقولون ما أنت في كلّ بلدة؟

وما تبتغي؟ ما أبتغيه جلّ أن يُسْمَى»

إجابته توحي كما لو أنّه يعلم، وهذا جزء من ثعلبية الكلمة على الإيهام، إلا أنّ ارتباك العلم يتجلّى في مكان آخر:

« أيّ محلٍّ أرتقي

أيّ عظيمٍ أتقّي»

«وكل ما قد خلق

اللّه وما لم يخلق»

«محتقر في همّتي

كشعرة في مفرقي»

لم يعد ما موجود غاية، أصبح [الكائن] عائقاً، والمفاهيم الراسخة بفعل التوارث حجاباً بينه وبين تحقّق الذات. كما لو أنّه في المكان الخطأ، والزمان الخطأ، وهذا ما جعل ذاته النافرة تتلفّت باحثة عن هواءٍ آخر خارج الهواء المتاح، تحاول أن تتدارك نفسها

Arab_Books

قبل الذوبان والتلاشي في عجلة إستهلاكية الحياة، أو عجلة التكرار العقيم.

الذات، محاولة في إنقاذ الموجود من العدم، وهذه المحاولة لا تتمّ إلا بالخروج على واقع عدمي، يطرح نفسه كوجود مثالي لتحقّق الذات.

لقد قتل آدم بخروجه عدمية الجنّة، ولا أظنّه بكى إلا فرحاً بنجاته منها، هذا التبرير جميل لوجود المُنْفَتِح في العالم، يجعله يجمح في قشط الترسّبات الملحية لأفكار، وعادات، وتقاليد، تبخّر ماء طراوتها، وتحوّلت إلى مسوخ تهيمن على الواقع:

«ذر النّفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبنّ المجد زقّا وقينة
فما المجد إلا السّيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى
لك الهبوات السّود والعسكر المجر
وتركك في الدّنيا دويّا كأنّما
تداول سمع المرء أنمله العشر»

أكاد أشم في هذه الأبيات، رائحة الحديث المحمّدي، الذي أفزع سادات قريش: «والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح» (سيرة ابن هشام: ١ / ٢٥٩)، كيف إذا كان هناك إصرار على التصريح بالموت؟

«وتنكر موتهم وأنا سهيل
طلعت بموت أولاد الزناء»

Arab_Books

إنّها صرخة حسين مردان في ما بعد:

«ليتني أستطيع أن أذبح التاريخ وكلَّ اللغات»

[المُنْفَتِح] إقصاء لكلّ يقين، وبالتالي فهو إدانة لكثيرين بتمثّلات مختلفة، لا أريد أن أحصر دلالة الموت ببعدها الفيزياوي، بل ينبغي فتحها على دلالتها المجازية، حيث تشير إلى إمكانية فرك صدأ المفاهيم الجاثمة على صدر الحياة الاجتماعية، من هنا تتأتّى خطورة التجربة المُنْفَتِحة، ومن هنا تُحاصَر بالتغييب، عبر النفي، أو التحجيم والتشويه، وهذا أقصى غاية العجز.

الأبيات السابقة لا تخلو من ميل إلى فاعلية [الاسكندر المقدوني]، أقصد تحديداً

«وتضريب أعناق الملوك»

خصوصا وإنّ الأخير جزء من الذاكرة الفاعلة للمتنبّي:

«كأنّي بنى الاسكندر السدّ من عزمي»

المتنبّي يبشّر الآخرين بموت المفاهيم وتغيّرها، ويعطي لذاته فاعلية كبرى في التحريض، لقد تقمّص [الذبابة الخبيثة] التي تقمصّها [سقراط] من قبله أمام قضاة أثينا صارخاً: «أنا ضربٌ من الذباب الخبيث، أنزله الله على الأمة، التي هي بمثابة حصان سمين بطيء الحركة ولا بدّ له من حافز»، بدأت غربته تأخذ شكلاً آخر، نمطاً غريباً، بدا نشازاً، لذا أقلق المحيطين به. لم يكن معنيّاً بهم ـ المُنْفَتِح معني بالمُستَقبَل في حاضرٍ كلّه ماضٍ ـ يتلفّت بلا شبيه:

«وعين لا تدار على نظير»

Arab_Books

هنا، نلامس لديه لحظة موت الاستقرار، موت الناس أولا، والمكان ثانيا. لذا أصبح الخروج باتّجاه المجهول حتميّاً، في محاولة للإمساك بجدوى، أو بوهم جدوى.

كانت ذات المتنبّي رجراجة القلق، وضاق المكان أمام سعة سؤالها، ينبغي الانتباه هنا إلى ان كلّ سؤال خارج اليقين (الديني / الاجتماعي / السياسي) هو ندبة ينبغي إستئصالها من وجهة نظر البيئة المنغلقة، الأمر الذي جعل حياته إقامةً على ظهور الخيل والإبل:

«ألفت ترحّلي وجعلت أرضي
قتودي والغريري الجلالا
فما حاولت في أرض مقاما
ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأنّ الريح تحتي
أوجّهها جنوبا أو شمالا»

ولأنّه خروج داخل مكانٍ واحدٍ، داخل نفس اللغة، وداخل نفس العقلية فإنّ القلق سيستمر معه دائماً، وستبقى ذاته الزئبقية معه إلى النهاية:

«بم التعلّل لا أهلٌ ولا وطن
ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكن»

Arab_Books

الإقامة في (تبدّو)

يصل بالمنفتح أن يقيم في منطقة (تبدّو)، حين ينكسر الاستقرار في مكان واحد، قرية أو مدينة أو بلد أو قارّة، وحين ينكسر الاستقرار داخل عقل واحد، دين، قومية، حزب، أو حتى داخل تصوّر واحد للعالم من وجهة نظرٍ علمية، هذا ما تجسّد لي عند خروجي من العراق إلى الأردن، ثمّ إلى أستراليا.

«ليس بمقدورنا

الإقامة في الورد

والنحل

في ذروة جنون البحث

عن عسل

* * *

ليس بمقدورنا

الإقامة في العسل

وعيون الآخرين

بهذه الشراهة

* * *

Arab_Books

ليس بمقدورنا

الإقامة في عيون الآخرين

والمقابر

بهذا الجوع»

وبالتأكيد فإنّ أبسط دلالات التبدّو هو الخروج من المكان الأوّل، ثمّ انفتاح التنقّل دون أين، أو دون شعور بالإلتصاق مكانيّاً، لكنّها مع المنفتح تتحمّل دلالات أكثر سعة، يتجرّد المُنْفَتِح من جذوره الاجتماعية والثقافية، تُصبح الأرض والأفكار غير آمنين كمأوى، ويتحوّل المكوث الطويل ـ في مكانٍ ما، أو في بيئةٍ ثقافية ما ـ إلى أشجار من قرف يتعالى، بل يلتفُّ القرف، من المكان، أو الزمان، أو أفكارهما، حول العنق كأفعى، توغل في الإلتفاف، في رقصة لا يسمع موسيقاها إلا الذاهب بعيداً عند فم الأنهار، مستغرقاً في غربته، متوحّداً صامتاً في ضجيجه، تماماً، كإله (إخناتون)، الكلّ يراه ولا أحد يعرف مسيرته.

«لي قامة بلا إقامة

ولي حدائق مكبوتة

وأعناب

أنا جاهز للسكر

جاهز للخروج من هذه الفقاعة الكبيرة

العالم

النظم

Arab_Books

الأصدقاء

جاهز للإلتحاق بزهرة عبّاد الشمس

وبالموسيقى»

ترتفع الدلالة إلى مستوى الإقامة في فعل الهجرة، أن تكون مهاجراً أبديّاً لا إلى هذا ولا إلى ذاك، هجرة دائمة، إقامة على ظهر ريح، أن تكون أفكارك المنطاد الذي يأخذك هنا وهناك، وبحسب تجربة الصعلوك (حسين علي يونس) فإنّ:

«قدر الشعلة

أن تستجيب لنداءات أحشائها»

أن ينتمي الفرد إلى صوته الداخلي، وأن ينجرف معه إلى الأقاصي، حيث تكون الحدود إشارة مبطّنة للتوقّف أو للقفز، المنفتح لا يرى في إشارات الحدود إلا ما تتضمّنه من غواية على القفز، أن يتبع الخطى التي لا تعرف التحجيم، هكذا، يواصل كسر الإشارات ولا يلتفت، قد تخترق رأسه رصاصة طائشة أو رصاصة قنّاص، عندها فقط يمكن للأقدام أن تتوقّف ليس إلا.

وكما قلت قد تنفتح لحظة (تبدّو) على قراءات أخرى، كأن يقيم المنفتح في المكان ذاته، ولا يقيم في عقل المكان، أو لا يقيم في ثقافة المكان، وهنا يكون فعل التبدّو داخل العقل النافذ الذي يتجلّى عبر السلوك والممارسة، أن يكون المنفتح مقيماً / مهاجراً في آن، يمكن أن يكون (الصعلوك) نموذجاً.

Arab_Books

ضوء على تجربة مجاورة

ترتفع إلى ذاكرتي تجربة [الزهاوي] في ضيقه الأقصى، حين رفض أن يكون شاعر البلاط ومدّاح الملك براتب شهري، حين أُقصيَ تماماً عن أيّ سلطة اجتماعية سوى الشعر، لم يبق بين يديه سوى فضاءات الفكر والمخيّلة، سوى الرؤى التي تمتلك فاعلية السحر، لكنها لا تمتلك سلطة التحقّق، لم يبق لديه سوى الشعر، الذي لا يمثّل إلا جناحاً واحداً في الطائر:

«ما لي أراك على الإجادة في الذي
تبديه منسيّاً من الجمهور؟
هل أنت في بلدٍ أضاعك أهله
أم أنت بالإقبال غير جدير؟
أحمامة غنّت بجانب دجلة
لم يبق مستمعٌ إليك فطيري»

السؤال يدفع [المُنْفَتِح] إلى الهجرة، يمكن الإشارة هنا إلى هجرة العقل العراقي في مطلع التسعينيات للقرن الماضي، فعندما تنغلق مسامات التنفّس ينبغي الخروج من الجسد / البلد.

«كأنّما الأوطان

Arab_Books

أرحام

سنولد

في سواها»

لا نبي بلا هجرة، ولا مصلح أيضاً، قد تتمثّل الهجرة بالنفاذ من فكرة منغلقة إلى انفتاح ما، لكنّها الهجرة التي تمنحه الإحساس بالنفاذ من أحماض الزجاجة، يصبح خارج القيود الأولى، بل محيطاً بها ومشرفاً عليها، يرى أدقّ التفاصيل، التفاصيل التي لم ينتبه لها هناك أو حتى لم يقف عندها، الخروج من الأحماض يمنحه القوّة على التذكّر، ليس حنيناً بل قراءةً وتجاوزاً، تمنحه القوّة على القول والفعل، والجرأة على الانتشار، بعد أن يبدأ بتفكيك الأحماض والزجاجة، المقدّس والتابو.

إكتفى الزهاوي بالتحليق إلى [مصر]، أي أنّه تنقّل كالمتنبّي داخل نفس اللغة وداخل نفس العقلية، رغم أنّه كان يجيد اللغة الفارسية والتركية نطقاً وكتابة، حتى أنّه ترجم رباعيات الخيام عن الفارسية وألّف كتاباً باللغة التركية.

كما لو أنّه أراد أن يستمر مع حليب الأم الأولى، إلتفت إلى مصر، بقي داخل نفس البيت، داخل نفس الجسد الثقافي، انتقل من غرفة إلى غرفة أخرى فقط، لا شيء سوى إستبدال حوزة النجف بجامع الأزهر، إضافة إلى كونه الخروف الأسود في مصر، فلّما لم يجد ما يريد، وتعالى طنين الذباب حوله، عاد إلى بغداد بعد أن إستودع ديوان «النزغات» عند سلامة موسى على أن يقوم سلامة

Arab_Books

بطبع الديوان بعد موت الزهاوي، عاد إلى بغداد بعد أن أدرك أن لا نافذة في الأفق:

«مكانك لا تطلب من الدهر مخرجاً

فإنّك أنّى سرتَ في قبضةِ الدهر»

عاد إلى بغداد مكانه الأوّل ليكتب أعلى صيحاته «ثورة في الجحيم».

لا أريد ان أقول أنّه جاء قبل الأوان، بل جاء في أوانه تماماً، وفعل ما يستطيعه، يكفي أنّه حرّك الرماد، أقلق المحيط، أربك المعرفة الثابتة، هزّ عرش اليقين الاجتماعي، ثمّة الكثير على شاكلة الزهاوي، لهم من الأهمية ما للمصلح الذي ينتشر ويتحوّل إلى ذائقة جماعية، إنّهم محاولات في «تعديل انحراف قديم في الروح» على حدّ تجربة [سليمان جوني]، تجعل المنفتح يوغل في ذائقة لم تولد بعد، هو رحمها.

Arab_Books

الخروج على التابو

تصعد إلى طاولة البحث كلمتان إحداهما معرّبة وأخرى عربية، أقصد كلمتي (تابو / تابوت، تابوه)، هذا الخلط بين الذهني والحسّي في وقت واحد معا، يحاصراني الآن، ويجرّاني جرّاً للتوقّف عندهما قليلاً، فعلى صعيد الشكل تبدو كلمة (تابو) كما لو أنّها خرجت من رحم كلمة (تابوت، تابوه)، بينما على صعيد التجربة الحياتية فلطالما خرج (التابوت، التابوه) من رحم التابو، كان الموت عقاباً لكسر الحرام والممنوع، وبالتأكيد فأنّهما تحتويان معا دلالتي التوبة والهلاك كما في (تاب، تبّ)، وكلاهما تحتوي ضمنا دلالة التوقّف القسري، وهاتان الكلمتان وما يخلقهما من إشتقاقات معاشتان بشكل يومي، وتشغلان حيّزاً كبيراً من حياة الإنسان كنوع، وكفرد، لا على صعيد التفكير فحسب، بل على صعيد الممارسات الاجتماعية أيضاً، وقد يمرّ وجود الفرد سريعا، أو ببطءٍ سلحفاتي دون أن يقف عندهما، أو دون حتى أن يلتفت إليهما، أقصد هنا، الذين يولدون وهم غرقى في آخرين، قد يكون غرقاً دينياً، أو سياسياً، أو اجتماعيا.

المُنْفَتِح يتحسّس الكلمتين بشكلٍ أكثر توتّرا، إنّهما تقفان كعائقٍ

Arab_Books

أمام تحقّق ذاته وإستطالتها، وعليه فإنّ خروجه عليهما، سيكون خروجاً على دلالاتهما القامعة، فهو إذن لا يقيم في دلالة (تاب)، بل يقيم، دائماً، في دلالة (تبّ)، المُنْفَتِح لا يتوب عن ذاته، إنّه يتوب عن توبته كما في تجربة عمر الخيّام، المنفتح يلتصق بتابوته.

Arab_Books

إصطفاف غير مقصود

خروج المتنبّي باحثاً عن جدوى [لذاته وللعالم]، جعله يقف تماما في المنطقة السديمية قبل تشكّل الأفكار وانصبابها في قوالب محدّدة وصارمة، وقبل أن تأخذ الكلمات دلالات ثابتة وحادّة، جعله يصطف مباشرة إلى جانب الجيل الأوّل من الأحناف، مثل [قس بن ساعدة الإيادي] و[أمية بن أبي الصلت]، انّه الإصطفاف في منطقة جدليّة الموت والحياة، الموت الذي يحيط بالطبيعة والبشر، حتى لا نجاة ولا عودة. الحنيفية هنا ليست كمذهب، بل كإنفصال وانحراف عن الخطوط المستقيمة الجاهزة.

بلوغ هذه الإنتباهة لا يمكن أن يتمّ إلا بالخروج على المعرفة المتاحة، المعرفة التي تغلّف السلوك الاجتماعي العام كيقين (جدران جنسية، جدران أخلاقية، جدران طبقية، جدران ثقافية)، إنّه الإنطلاق من منطقة [الصفر المعرفي]، حيث تبدو كلّ معرفة سابقة عاجزة عن تقديم إجابات أو حلول لأزمات اجتماعية / حياتية، وغير قادرة على الصمود أمام سرطان الشكّ، وحيث تبدأ الذات تتهجّى قراءتها الخاصة جداً عبر سيل من الاستفهام الشرس

Arab_Books

والمدبّب، وبالتأكيد فإنّ الموت سيكون أشدّ المواقف حراجة وإشكالاً.

هكذا، الموت هو الثور الذي علينا أن ننتبه إلى أنّنا نقف إزاءه دائماً، وألا نجاة لنا من أحد قرنيه أو كليهما معاً. منذ لحظة التشكّل في الرحم، تبدأ أقدام الثور بضرب الأرض استعداداً للجري، لكلّ فرد ثوره الخاص، بل إنّ تحقّق وجود الفرد بحدّ ذاته إستفزازٌ للثور.

أحاول أن أتخيّل هرج الثيران في لحظة يتمّ فيها تفجير قنبلة في حشد من الناس، صخب خوار هائل، ثيران لفرط هياجها ترتطم بعضها ببعض، تنحدر إلى الحشد من جهات كثيرة، من باطن الأرض ومن السماء، من الجهات كلّها، تثير غباراً وشرراً في لحظة انفعال عنيف لا يمكن الإحاطة بها، تبلغ حدّة الإنفعال والهيجان أن يخترق قِرْنٌ قِرْناً، إيغالاً في المحو.

لا أريد أن أحصر دلالة الموت في بعدها الفيزيائي فقط، لأنّ كلّ ما يمكن أن يعيق تحقّق الذات هو تقمّص بشكل أو بآخر لمستوى معيّن من التدرّج الطيفي لدلالات الموت، الحكومات المستبدّة، العائلة، النظم الأخلاقية، الجهل، الفقر.

وقف المتنبّي إزاء الموت كما هو، الموت الذي يأتي في لحظته، الطبيعي جدا، لا الموت الذي يتمّ جرّه جرّاً، رأى القاتل والمقتول معاً في قبر واحد، رأى التجمّع صورة من صور التفرّق، بل تحسّس التفرّق في لحظة التجمّع، رأى النهايات التي تحاصر الناس، فصاح:

Arab_Books

«أبـنـي أبـيـنـا نـحـن أهـل مـنـازل
أبـداً غـراب الـبـيـن فـيـهـا يـنـعـق
نـبـكـي عـلـى الـدّنـيـا ومـا مـن مـعـشـر
جـمـعـتـهـم الـدّنـيـا ولـم يـتـفـرّقـوا
أيـن الأكـاسـرة الـجـبـابـرة الأولـى
كـنـزوا الـكـنـوز فـمـا بـقـيـن ولا بـقـوا
مـن كـلّ مـن ضـاق الـفـضـاء بـجـيـشـه
حـتّـى ثـوى فـحـواه لـحـد ضـيّـق
خـرسٌ إذا نـودوا كـأن لـم يـعـلـمـوا
إنّ الـكـلام لـهـم حـلال مـطـلـق
فـالـمـوت آتٍ والـنّـفـوس نـفـائـس
والـمـسـتـعـزّ بـمـا لـديـه الأحـمـق»

هذا النصّ بالتحديد عودة إلى البدايات الأولى قبل تشكّل العقل الإسلامي، إنّه ينطلق خارج محدّدات البيئة الدينية، يتجاوزها بعدم الوقوف عند تفسيراتها، إنّه يقيم في المنطقة السديمية قبل تشكّل نجوم ومجرات الوعي، لذا يبدو لي النصّ كما لو أنّه خرج من فم [قس بن ساعدة الإيادي] صاحب أشرس علامة إستفهام قبل بدء الدعوة المحمّدية: «ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا؟!»

كما أنّ الأبيات لا تبتعد عن فم [أمية بن أبي الصلت] حين صاح:

Arab_Books

«بـيـنـا يـربّـبـنـا آبـاؤنـا هـلـكـوا
وبـيـنـمـا نـقـتـنـي الأولاد أفـنـانـا
وقـد عـلـمـنـا لـو أنّ الـعـلـم يـنـفـعـنـا
أن سـوف تـلـحـق أُخـرانـا بـأُولانـا
أمـا نـبـيّ لـنـا مـنّـا فـيـخـبـرنـا
مـا بـعـد غـايـتـنـا مـن رأس مـجـرانـا؟»

الذي يلفت الإنتباه هنا، أنّ كلاً من [قس بن ساعدة الأيادي، وأمية بن أبي الصلت] كانا مّمن خرج على ما هو متعارف عليه من عبادة الأوثان قبل الإسلام، ورفعا من عمق الأسئلة الحنيفية، التي حفرت تراب العقائد الوثنية، بحثا عن [جدوى] تختبئ وراء أقنعة الأعراف والتقاليد، وكلاهما كان يبحث عن دينٍ جديد، أو رؤيا جديدةٍ للعالم، تعيد صياغته مرّة أخرى.

بل ساهما معاً في تأثيث الأرضية الثقافية لرؤيا جديدة، وإذا ما كان ـ قس بن ساعدة ـ [منتظرا] لنبي قادم «يقسم قسّ أنّ لله دينا هو أحبّ إليه من دينكم هذا»، فإنّ ـ أمية بن أبي الصلت ـ راح يهيئ [لنبوّة شخصيّة]. ولا أعتقد [المتنبّي] إلا إمتداداً لهذا الطرح.

وإذا ما كان [أمية] قد تجرّأ على التساؤل:

«أمـا نـبـيّ لـنـا مـنّـا فـيـخـبـرنـا
مـا بـعـد غـايـتـنـا مـن رأس مـجـرانـا؟»

فإنّ المتنبّي حاول بلغة ثعلبية، أن يطرح ذات السؤال، لكن بطريقة تعتمد الإلتفاف والدوران، حتى كأنّ الكلمات لا تعني، رغم إشارتها الدفينة:

Arab_Books

«ما أبتغيه جلّ أن يُسْمَى»

لم يكن زمنه زمن تصريح بنبوّةٍ أخرى، لأنّ المنظومة المعرفية، التي سيّرت لحظته الاجتماعية ولا تزال إلى الآن، إنغلقت على الحديث المحمّدي: «لا نبي بعدي»، هذا الحديث كان يخصّ أحناف الحجاز فقط، فتمّ تعميمه لاحقاً على العرب بعد أن تم القضاء على أطياف الحنيفية الأخرى بقوة السيف، ومن ثمّ تعميمه على المسلمين في العالم، حتى أصبح الخروج على منظومته المعرفية يحمل دلالة الخروج عن الإمامة والجماعة، أو الخروج عليهما، وبالتالي يقع القتل على الخارج كمرتد.

لقد أوشك المعرّي أن تتناوشه قرون السلطة حين صرخ بين جدرانه الثلاث: «لا إمام سوى عقلي»، وظلّت هذه الجملة نشازاً داخل ثقافة لا تقرّ علناً بعقل الفرد، بل تصرّ على توريث عقل الجماعة كطوطم وتابو.

ومع هذا فقد سحق ثور الموت الكثيرين كابن المقفّع، وصالح بن عبد القدّوس، والحلاج، وآخرين كثر خارج نطاق الحصر والعد.

ولأنّ المتنبّي وعى أزمته جيّدا، ظلّ انفتاح كلماته غائماً، مضبّباً، محمّلاً بدلالات، تقول ولا تقول، لكنّه، مع كلّ ثعلبيته، ظلّ مأكولاً أيضاً، بأفواهٍ لا تتجرّأ على البوح أمامه:

«أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني

فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا»

Arab_Books

يتحدّث عن نفسه بقداسة، لقد آمن بذاته ولم يُشْرِك بها.

الإشراك هو أن لا تؤمن بذاتك.

ثمّة أكوان من الوعي والوقت تفصل ما بينه وبين الآخرين، هو بينهم بعيداً عنهم، إنّه في منطقة إلتصاق الذات بحقيقةٍ تولد توّاً، في عالمٍ بمسمّيات أخرى تنبت من شفاهه، إنّه تماماً في مرحلة إعادة إنتاج الحقيقة، هذا بالتحديد، ما دفعه خطوة باتّجاه الصراع، مع الطواطم والتابوات:

«لأتركن وجوه الخيل ساهمةً

والحرب أقوّم من ساقٍ على قدم

ميعاد كلّ رقيق الشفرتين غداً

ومن عصى من ملوك العرب والعجم»

ليس خلف هذين البيتين حزب، أو جيش، أقول ليس خلفهما إلا [ذات] المتنبّي الممتلئة. وقوله [غدا] يحمل طموحاً بالانتشار، أتذكّر هنا تجربة المسيح، وهو يتّجه إلى الصليب «قد غلبت العالم» (يوحنا: إصحاح ١٦)، إنّه إنتصار الرؤيا وانتشارها.

تلثّمت كلمات المتنبّي بانفتاح، جعل الآخرين يقفون صغاراً أمام فضاءاتٍ لا يمكن تحديدها، إلا أنّ الإرتفاع بالصراع إلى حدّ التصريح، أوقعه في فخّ الأدلجة، لم تعد الأسئلة حبيسة الجسد، بل أصبح قلقه عصيّاً على التدجين، ولم يتمكّن من إخفاء برمه من العالم كمعرفةٍ متسيّدة، لقد أصبح العقل الجاهز سجناً وقيداً هائلين إلى درجة أن يطلق ضيقه إلى أقصاه:

Arab_Books

«كـأنّـه زاد حـتّـى فـاض عـن جـسـدي

فـصـار سـقـمـي بـه فـي جـسـم كـتـمـانـي»

لذا أصبح من السهولة الإمساك به، ورميه في غيابة السجن، كما لو أنّها دورة سقراط في الطبيعة البشرية!

Arab_Books

اللحظة الثانية

تجربة السجن
من التجريد إلى التجسيد

Arab_Books

* دعـوتـك عـنـد انـقـطـاع الـرجـاء
والـمـوت مـنـي كـحـبـل الـوريـد
دعـوتـك لـمـا بـرانـي الـبـلاء
وأوهـن رجـلـي ثـقـل الـحـديـد

* إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدو ملّكته أمري؟

* إن كنت تتودّد إلى من يؤذيك! فكيف لا تتودّد إلى من يؤذى فيك؟!!

Arab_Books

تجربة منفتحة في وسط منغلق

لا يكفي أن تكون الأفكار عقلانية، بل عليها أن تتسلّح دائماً بثقة وجرأة عاليتين جداً، وأن تكون الهمّة بإصرارٍ أكثر ثباتاً بحيث تصل ما تريد، عندها، وعندها فقط لن يقف العالم حائلا، بل إنّ [الذات] ـ هنا ـ لن تلتفت، قبل أن تصل. ليس أسطع من نموذج [زها حديد] وإصرارها على قتل الخطوط المسقيمة في الهندسة المعمارية الحديثة.

لكن، ما يحدث دائماً، أنّ الأفكار أحياناً أكثر سعة من الهمّة، وهذا لا يعني صغر الهمّة، بل محدوديّتها أمام انفتاح الأفكار، وتحليقها المستمر. وفي حالاتٍ ما تكون الهمّة أكثر جسارة من الجسد، فيعيا بها، أو يلفّه دوار البحر فتضيع اتّجاهات الخلاص.

وأنا هنا لا أحاول أن أضع شروطاً ولا عقبات، فللفكر المدى الذي يستطيع، لكن ما أريد أن أشير إليه هو اللحظة التاريخية تحديداً، لأنّها تحجّم المعرفة، أو تجعلها ممكنة، أن يتحوّل الفكر إلى سلوك، أو أن تفتح المعرفة المتاحة على صعيد التطبيق نافذة أخرى للفكر، أن تكون جناحاً وليس قفصا. سأنحني طويلاً لرغبة عباس بن فرناس، واقول لو أنّ وجوده تأخّر قليلاً لحلّق وحقّق

Arab_Books

رغبته التي قضت عليه، لكن ماذا عن تجارب الطيران الأولى ألم تكن تحمل من المأساة قدر ما حملت من الأمل؟! تجربة ابن فرناس واحدة من أهم البذور التي أنتجت شركات الطيران لاحقاً.

قرّر إبني علي أن يهبط من السماء في يوم عيد ميلاده الثامن عشر، وقد تحقّق له ذلك بسهولة، هبط ببرشوت من إرتفاع عشرة آلاف قدم، لقد ولد علي بعد أن أصبح هناك شركات هائلة للطيران وللهبوط المظلّي.

لكنّني أتحدّث هنا عن رغبة لم يتأسّس بعد المحيط الذي يجعلها تتحقّق، رغبة تتحرّك على أرض بكر، هي البداية الاولى، البداية التي لم تّتضح بعد، بداية فجر جديد، ضباب كثيف، وجبال تتدرّج في اللون، عمق مفتوح، عمق يغوي على الغوص، هكذا تنقاد لعنفوان الرغبة دون أن تدري إلى أين، لكنّها في كلّ الأحوال ستكون هناك خارج المعرفة المتاحة.

في تجربة المتنبّي، نجد بدءاً ثمّة همّة لا يقف أمامها جدار، إنّها خارقة تتجاوز محيطها:

«وما بلغت مشيئتها الليالي

ولا سارت وفي يدها زمامي»

نصوصه الأولى تقذفنا في لبّ الصراع، إنّه خارج كلّ تحديد، وضدّ كلّ إنغلاق، إنّه في [المُنْفَتَح] تماماً، ليس أمامه سوى الموت، وهو يدعو إلى إقتحامه، لا إلى الفرار منه.

الذات هنا لا تخلو في تمثّلها من مصارع ثيران، بل إنّها تقترب

Arab_Books

في الوعي من تجربة [لوركا] في «الروح المبدع»، أن يقف الفرد إزاء موته دائماً، وأن يواصل التقدّم نحوه، لكن، ليس فقط لمواجهة الموت ـ وهذا تجاوز للوركا ـ بل لمحاولة القضاء على الموت، هكذا، أقول: وجودك يتجلّى في انتصارك على الموت، أنت موجود لأنّك منتصر، وبالتأكيد، ستكون هذه الفرضية أكثر فاعلية عندما يلتصق هذا الموجود بانتاج حقيقة مغايرة.

إذن، البدايات تشير إلى إقامته خارج كلّ سجن.

يمكنني القول هنا أنّ المتنبّي سبق أو زامن بفعل الخروج صرخة [النفّري] لاحقا: «أُخْرُج من العلم تخرج من الجهل»، أو صيحة [ابن سبعين]: «أعوذ بالله من عقل يقنع».

أقول: إنّ هذا الوعي سابق لأوانه بكثير، فـ [نطفة] الاحتمال كانت لما تزل بعد في [أصلاب] التجارب الإنسانية، رغم إنّها تجلّت قبل ذلك عند السفسطائيين، عبر شعارهم البروتوغوراسي «الإنسان مقياس كلّ شيء»، ومن قبلهم [هراقليطس] أيضاً.

كما أنّ صيحة [ابن المقفع]: «بعض العلم جهل»، كانت محبوسة في غرف ضيّقة، لقد بقيت الجمل المنفتحة، مطاردة من قبل العقليّات المنغلقة، على طوال التاريخ البشري.

ينبغي فهم الجملة المنفتحة بدلالة [تجربة حياتية منفتحة]، أقصد التجربة التي تحوّلت إلى ذائقة عبر الممارسة، حتى لو كان الذي يمارسها شخص واحد فقط، بل أنّ وجود المُنْفَتِح بين الآخرين بلاءٌ لهم على حدّ تجربة (ابن المقفّع) «أُبتليتُ بأن أكون قائلاً، وأُبتليتم

Arab_Books

بأن تكونوا سامعين»، إذن فالجملة المنفتحة هي حياة يومية منفتحة لكائن أعلن، أو مارس ـ دون إعلان ـ خروجه على سياج، أو أسيجة البيئة الاجتماعية والمحيط العام.

لقد كان العقل البشري ـ ثقافيا ـ في مراحل نموّه الأولى، إنّه يقف على عتبة أخرى من عتبات اليقين، أقصد اليقين الديني تحديداً، بعد أن خرج على يقين القبيلة، ستبقى القبيلة موجودة في الذهنية إلى أمد طويل، تماماً كما بقيت الأصنام أو نماذجها المصغّرة في الزوايا البعيدة عن أعين الرقابة.

العقل الديني كان مرحلة اجتماعية / ثقافية أخرى، إنّه انتقال داخل محدّدات جديدة، عقد اجتماعي جديد، لكنّه إمتداد داخل مرحلة الأفكار الكلّية المنغلقة، لا مجال للإضافة، وما على الفرد إلا أن يقيم داخل دائرة التابوات الجديدة، كأرض حرام حرثها، خصوصاً وقد تمّ تأطير التجربة بهالة سماوية، إستمرّ منهج هذه التجربة فيما بعد حتى ضمن أكثر الأفكار تطرّفاً وخروجاً على الدين، فمع الماركسية أصبح لدينا يقينٌ وضعيٌّ إزاء يقينٍ سماوي، أي أصبح لدينا دينٌ أرضيٌّ إزاء دينٍ سماوي، والنتيجة واحدة حين يفقد الفرد قدرته على الخلق. الممارسة هي المعيار في الإختلاف وليس التشدّق بالكلمات والمفاهيم. لقد خرج ماركس على الأديان غير أنّ أتباعه جعلوه نبياً، وجعلوا كلامه مقدّسا، الأغبياء أطلقوا عليه رصاص القداسة!

أريد أن أقول هنا إنّ إطروحة (ميشيل فوكو) حول ولادة العقل العلمي قبل مائتي عام لا تعني نهاية العقل الخرافي، المعرفة العلمية

Arab_Books

هنا تعادل الطفرة البايولوجية في عملية النشوء والإرتقاء، وبهذا فالعقل الخرافي كممارسات اجتماعية سيواصل إنتاج ذاته بكثافة ـ حتى ضمن أكثر الأفكار خروجاً على الخرافة ـ حتى يتحوّل العقل العلمي إلى لحظة تاريخية مؤثثة معرفياً بشكل مكتمل ومهيمنة على الواقع الحياتي عبر سلوكيّات وممارسات يومية معاشة.

أريد أن أقول: أن الإنسان كإنسان، كمشروع بعيد عن الله لم يكتمل بعد، لا نزال إلى الآن في لحظات مخاض ولادة الإنسان، أمّا مشروع السوبرمان عند نيتشه أو الإنسان الأعلى عند فوكو فإنّه لحظة تاريخية قادمة، قدومها مقترن بتحقّق ولادة الإنسان، ولعلّها أن تكون أقصى ما تقدّمه الحركة الديالكتيكية للتاريخ البشري على الأرض، لأنّني أرى إنسان تلك اللحظة ـ في أدنى توقّع له ـ سيغادر الأرض، سيتحرّر من سجنه القديم، يصبح كائناً كونيا.

لا يزال حضور العقل العلمي حضوراً فرديا، لأنّه في جوهره قائم على أساس فردي، كما أنّ الإقرار بنسبية المعرفة لا يقود إلى تكتّلات كالتي يخلقها العقل الخرافي القائم على أساس الجماعة، ومع هذا فإنّ العقل العلمي الفردي يزداد حضوراً كواقع وكتيّار اجتماعي، أو كلحظة معرفية راهنة تزداد كثافة وثقلا، وعليه ينبغي قراءة حضور الخرافة ـ أو حضور الله بصورة أدق ـ في اللحظة الراهنة أيضاً وبهذا الإتساع على أنّه حركة ميكانيكية أخيرة، إنّه تماماً ردّة فعل الأجساد وهي تقترب من نهاياتها الضيّقة، ينبغي الإقرار بمتحفية العقل الخرافي، متحفية العقل الديني، ذاك أنّ التكرار العقيم تعطيل وإلغاء لقدرات بشرية يمكن أن تكون فاعلة في تأثيث الممارسات الاجتماعية داخل بنية العقل (العلمي / العملي) الآن.

Arab_Books

جدل النيّة والفعل

الهمّة النافرة التي تطمح إلى التغيير، وتسعى إليه عبر [الفعل] وليس عبر [النيّة] فقط، غالبا ما تُستَفز، بما تلاقيه من معارضة، ومجابهة، مما هو أدنى منها في سلّم الوعي البشري ـ باعتقادي الشخصي أنّ الممارسة الاجتماعية تحدّد الزمن الفعلي للوعي ـ هذا الإستفزاز يجعلها إما أن تنكفئ، أو أن تتوهّج.

كنت أشاهد فيلماً وثائقيا عن كتاب الموت عند التبتيين، وكان ابني علي إلى جواري، عندما انتهى الفيلم سألته مباشرة: ما رأيك بما رأيت؟

قال: «لو أنّ هذا الأمر يحدث قبل خمسمائة عام فسيكون مثيراً، أما أن يحدث الآن فإنّه أمر مقزّز».

وهذا بالتحديد ما أسميه التحديد الفعلي للزمن، لقد كانت قراءة علي للفيلم تعكس مباشرة درجة وعيه ومدى التصاقه بلحظته الراهنة.

ولما كان الفكر كتجربة مما لا يمكن بلوغه دائماً بسبب إختلاف الأزمنة الفردية وتقاطعاتها، فإنّ الواقع اليومي لانبعاث العقل العلمي لا بد آخذ بيد الكثيرين ممن أبطأوا أو ثقل عليهم استلام إشارات الفكر المنفتح هنا وهناك.

Arab_Books

أحبّ أن أتكئ هنا على تجربة [سارتر] مع كتاب «رأس المال»، يقول في «نقد العقل الجدلي»: «قرأت كتاب [رأس المال] وكتاب [المثالية الألمانية] لكارل ماركس: وبدا كلّ شيء في غاية الوضوح. لكنّي في الواقع لم أفهم أيّ شيء؛ لأنّ الفهم يعني أن تغيّر من نفسك، وأن تتجاوز ذاتك: ولم تغيّرني قراءتي هذه لكارل ماركس، وإنّما الذي بدأ يُحدث التغيير فيّ هو شيء عكس ذلك، وكان هذا الشيء هو واقع الماركسية، الحضور الثقيل على أفقي لجماهير العمّال، حشد هائل كئيب كان يعيش الماركسية، وكان يمارسها».

إذن، الفكر المقصود هنا هو الأكثر إلتصاقا بالسّلوك، الذي يتحوّل إلى ذائقة، أي ممارسة يومية، السلوك هنا هو لغة الفكر، السلوك هو الأبجدية، أبجديتك التي يمكن أن يتلقّفها الآخرون.

أتحدّث عن التجارب الإنسانية التي تُشْغِل تفكيرها عملية بناء الإنسان والصعود به، إلتقاطه من اللحظة العدمية، لحظة التكرار العقيم، إلى لحظة أخرى خارج الروتين اليومي، لحظة انتباهةٍ واضحة لمكانة ودور الفرد في العالم.

هذا المبحث يثير إشكالا في تعريف [المثقّف]، فالأمر هنا لا ينحصر في [النوايا]، بل يتجاوزها إلى [الأفعال]، وأنا هنا أتحدّث عن إنموذج المثقّف المُنْفَتِح، وهو إنموذج آخر يختلف تماماً في أسلوب حياته ونمط آليات تفكيره عن إنموذج المثقّف الإيراني مثلاً عند إدوارد سعيد في كتابه «آلهة تفشل دائماً»، المُنْفَتِح هنا لا ينتظر آلهة، ولا يخلق آلهة، كما أنّه ليس كبش فداء، مع المُنْفَتِح ينتهي تاريخ الإله، ينتهي تاريخ القداسة، ينتهي تاريخ التضحية، وبالتالي

Arab_Books

تتوقّف عملية إنتاج الشياطين أيضاً، مع المُنْفَتِح لا ننتظر إنتقالاتٍ متطرفةً، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، الانفتاح ليس تطرّفاً كالإنتماء، أو بصورة أدق ليس هناك تطرّف في الانفتاح، ولا يلد الانفتاح تطرّفاً، وقلق المُنْفَتِح أكثر استقراراً من طمأنينة اليقيني. الانفتاح إقامة في التدرّج اللوني، في دخول الألوان بعضها ببعض. المنفتح يرى ويعي جيّدا أن الكل على حدة يحاول بأعواد سريّة أن يدعم انتصاب فزّاعة الآخر، الكلّ يساهم بإصرار مستميت على خلق الضدّ ودعمه، خصوصاً أولئك الذين في السلطة، لأنّهم بهذا يحاولون إيجاد تبرير عقلاني لبقائهم في مواقع النفوذ، سواء أكانوا رأس مال مهيمن، أو ميثيولوجيا تؤثث لرأس المال.

ثمّ إنّ الحياة ـ الآن ـ أسرع من أن يجلس أيّ كائن كي يتأمّلها، هذا السّيلان في التبدّل، إنهمار المعرفة، كما لو أنّ سماء الوعي إنفتقت، ولادات سريعة تصل شيخوختها بخطى قليلة (برامج الكمبيوتر إنموذجاً)، تجعل الحياة ـ الآن ـ أقرب إلى الإرتجال منها إلى التأمّل، وبالتالي تخلق مفهوما آخر للمثقّف، بهيئة تضادد هيئته التي صاغها [رودان] في تمثاله الشهير أيضاً، هكذا:

«لم يعد ممكناً الجلوس

كما أردت يا رودان

خذلتنا المعرفة

وجرى التاريخ

لا مثلما تنبّأت الحتميات»

Arab_Books

الحياة المرتجلة تتطلّب كائناً إنسانياً خطواته في الشارع، وعيناه خارج المحيط، ليس معلّما، بل محرّضا، إنه أحد السمّاكين في تجربة الصعلوك حسين علي يونس، أولئك الذين:

«من أجل صيد الأسماك

كانوا يتجمّعون

أحيانا

يطيب لهم أن يعكّروا المياه بمجاذيفهم

لم يكونوا من أولئك

الذين يمكننا أن نصادفهم في الأزقة

التي تصرّ كالحشرة في رؤوس مخترقيها

في قلب المدينة هذي

تتحرّك عوالم

لا يمكن نسيانها أبداً»

قراءة متأنيّة للنصّ سنجد أنّ السمّاكين أندر من الأسماك، وأنّهم يتجوّلون في مياه / أزقة الحياة تماماً كأسماك، ما فعله الصعلوك في هذا النصّ أنّه تمكّن من إصطياد السمّاكين أنفسهم.

المنفتح سمّاك ماهر يعكّر مياه المفاهيم من أجل تعجيل خروج الأفراد إلى ذواتهم الخاصّة، إنتشالهم من صرير الأعراف والشرائع، دفعهم إلى الإنشغال بأنفسهم على حدّ تجربة سقراط، إنّه تماماً: لا تبحث عن نفسك خارج نفسك، أو «لا تنتظر إجابة من غير ذاتك»، السمّاك هنا يصطاد أو «يلتقط ذاته» بدءاً، ثمّ تتوالى الأسماك.

Arab_Books

وعي فردي إزاء لاوعي جمعي

خروج الفكر من منطقة [النيّة] إلى [الفعل]، يُدخل الذات المنفتحة مباشرة في صراع مع الآخرين سواء أكانوا أفكاراً، أو ممارساتٍ اجتماعيةٍ غثّة. فالفكر الجديد، أو الذائقة الجديدة، ستتضارب مع أفكار تحوّلت إلى سلوكيّات وممارسات يومية بهيئة اعتقادات أو أعراف اجتماعية جاثمة على صدر الواقع اليومي. وبالتأكيد فإنّ الممارسات الاجتماعية لا تقتصر في قيامها على البعد الأخلاقي، سيدخل البعد السياسي والاقتصادي كي يؤثثا الأفكار ويمنحانها التبرير الواقعي للإنوجاد، فالذهاب إلى المقهى، أو الذهاب إلى الجامع هما في الأساس فكرتان تحوّلتا إلى ممارستين اجتماعيتين، والذهاب هنا كفكرة تختلف تماماً عن فكرة الذهاب إلى الدائرة، أو المعمل، أو أيّ شكل من أشكال أمكنة العمل، فالمقهى والجامع والملعب محاولات في إمساك شيء كمالي يمنح الوجود البشري تبريره، والقول بتحوّل الفكرة إلى سلوك أو ممارسة يومية، يعني أنّها دخلت منطقة اللاوعي الجمعي الذي يسيّر الحياة الاجتماعية، لذا فالخروج أو التصادم سيكون مع الممارسة لا مع الفكرة، أي سيكون صراعاً بين وعي جديد وبين لا وعي جاثم كواقع، من هنا تحديداً، لا يجد صاحب الذات الخارجة على

Arab_Books

الأفكار ـ التي أسّست الجامع والمقهى مثلاً ـ من يؤازره على الانتصاب في أحايين كثيرة غير عموده الفقري، إنّه ممارسة فردية تتحرّك بوعي داخل بيئة اجتماعية لها ممارساتها الجمعية التي تؤديها ـ كطقوس وممارسات ـ بلا وعي.

أقول، لشدّة إنتصاب الذات أحياناً، سرعان ما تنكسر، تنكسر فقط لأنّها غير قابلة للإنحناء. أتذكّر هنا تجربة شيخ همنغواي: «يمكن أن يُدمّر الإنسان، لكنّه لا يُهزم»، التغييب والتحجيم ضربٌ من التدمير، الطرد من الأمكنة، فرض العزلة أيضاً، التلصّص على الأنفاس، تحوّل الآخرين إلى مراقبي خطوط لحركة الذات داخل مشكاتها، لقد عشتُ هذه التجربة بوضوح صارخ عندما أعلنتُ إفتتاح (صالون المنفتح الأدبي) في شقّتي على جبل القصور في عمّان عام (٢٠٠٢)، كان أعضاء (حركة الوفاق) المنشقّة عن حزب البعث العراقي يلاحقون بالمساءلة كلّ عضو من أعضائهم يحضر نشاطاً ثقافياً للمنفتح، وكانت التقارير تُكتب سرّاً وعلانية، وكان هناك أيضاً كرسي للإعتراف تتابعوا كأعضاء في الجلوس عليه واحداً بعد آخر، لم يتطرّق (محمد غازي الأخرس) إلى ذلك في كتابه (خريف المثقّف)، من يدري، لعلّ لحظة الإعتراف قادمة، ولعلّي أنا من يقوم بكتابة ذلك لاحقاً.

حين تكون المجابهة غير متوازنة، تدفع الفرد أحياناً إلى التهوّر، خصوصا مع [ذات] ترى نفسها خارج كلّ شيء:

«أمط عنك تشبيهي بما وكأنّه
فما أحد فوقي، ولا أحد مثلي»

Arab_Books

وتقرّ علنا بأنّ اليقين بكلّ أشكاله ورتبه وهم ليس إلا.

إلا أنّ التهوّر من قبل الذات المنفتحة، يمنح الآخرين سلطة التحكّم بها، تحت شعارات تافهة منغلقة، كإتّهامها بخرق المقدّسات، أو بالخروج على الجماعة، أو إتّهامها بمحاولة تفكيك الصفّ، أوهدم أصالة الهويّة، أو التنصّل من الأمّة أو القومية، أو، أو، أو، من التكفيرات الجاهزة للذوات الإسمنت. إتّهام واحد من هذه الإتّهامات الساذجة كفيل بقتل المنفتح أو بزجّه في غيابة السجن.

من أجل كلّ هذا مجتمعا، دخل [أبو الطيب] السجن.

لم يتم تحديد فترة إقامته، لكنّها حتى لو كانت ساعةً واحدة، فإنّها في النهاية تجربة ذاتية حادّة، كشفت له سعة ما يريد، وقسوة الحياة وصرامتها عندما يبدأ منفرداً بوضع أولى خطواته على طريق البلوغ.

Arab_Books

الخروج من هاوية القناعة

القناعة حدٌّ يجعل العالم فقاعةً هائلة ممتلئة، ويجعل الحياة إقراراً بالإقامة فيها، لكن، يكاد المُنْفَتِح أن يصيح «أسألك النجاة من المحدود» على حدّ تجربة غيلان، هكذا، شكّة خفيفة تفصل الذات عن تحرّرها، سؤالٌ واحدٌ يجرف القيود وإشارات التحريم والمنع كما يجرف الطوفان البيوت والأشجار والأرصفة. السؤال إنتباهة كأنّها خروج من سبات عميق، شيء ما ينقلك فجأة إلى ما لا تتوقّع، يعيد صياغة التفكير، يفكّك الأصول ويترك للانفتاح الجديد أن يصوغ معماره الذهني، هكذا، الغرفة ضيّقة كأنّها سجن انفرادي، ثقب واحد في أحد جدرانها يعيد صلة السجين بالعالم الخارجي كلّه.

كان المتنبّي رجلاً خرج على [القناعة] في أمّة قائمة عليها.

«أريد من زمني ذا أن يبلّغني

ما ليس يبلغه من نفسه الزمن»

إنّها تجربة [كلكامش] مرّة أخرى، يطرح سؤاله الوجودي: «أيكون في وسعي أن لا أرى الموت الذي أخشاه وأرهبه؟»، محاولة أخرى في كسر حدود الحياة، والخروج إلى ما ورائها، أو هو طلب

Arab_Books

حياة أكثر إتّساعاً، الإتّساع هنا تحدّده الفاعلية لا المساحة، حيث تتحرّك ذاتك بملئ إرادتها، وحيث تكون الخطوة تأريخاً، هكذا، أن تعي وأنت تمشي بأنّ كلّ خطوة تأريخ، تمشي وبصمتك على الأيام.

القناعة تأجيل للذات، أو الإقرار بمحدوديّتها، يحدث ذلك حين يكون قرار القناعة ذاتيّا، لا تحت ضغط شريعةٍ دينيةٍ، أو تحت ضغط قانون داخلي لحزبٍ ما، أو تحت ضغط سلوكٍ جمعي، لأنّه هنا يقوم على نسف الذات وإلغائها، طمس خصوصيّتها ومحوها من التاريخ، حتى كأنّها لم تكن.

حدث مرّة معي ـ في منتصف تسعينيات القرن الماضي عندما كنت أقيم في بغداد في مدينة الثورة منها ـ أن التقيت بشخص متديّن مؤمن، بل كان مفرطاً في الايمان، وكنّا تحدّثنا معا عن كتب معيّنة كنت أبحث عنها يومذاك، وصادف أنّه يملك بعضها، فلّما طلبت استعارتها، قال: «عليّ أن أستخير.

قلت: والقرار لمن؟

قال: للخيرة.

قلت: أنت تلغي إرادتك وتتبع إرادة الخيرة، أنا أتحدّث معك باعتبارك حي، وتعي أنّك حي ومسؤول عن وجودك في الحياة. قال: الخيرة ركن أساسيٌّ من إيماني».

ثمّ، لم أره بعدها.

هذا النموذج يتكرّر كثيراً في البلدان التي لا يزال الحسّ الديني أو الخرافي هو المحيط أو هو المناخ المهيمن. إنّه لا يعي إنّه حيٌّ

Arab_Books

بدءا، لأنّ إيمانه قائم على إلغاء دوره وفاعليته وخصوصيته، هو يؤمن بإنّ كلّ شيء قد تمّ هناك في لحظة البداية البعيدة، وما عليه إلا أن ينقاد طوعاً للخيوط التي تحرّكه تماماً مثل دمية.

أريد أن أقول هنا أنّ الرغبة في الإتّساع أوّل سمات الخصوصيّة، الإتّساع في الفاعلية والتأثير، فكلاهما يقود إلى توسيع رقعة الذات، أو توسيع عالمها.

لقد كانت (سدوري) صاحبة الحانة أمينةً مع (كلكامش)، لم تدفعه خارج حدود إمكانيّاته، ولم تقمعه داخل حدود الإمكانيات، بل قالت بوضوح صارخ:

«إلى أين تسعى يا كلكامش

إنّ الحياة التي تبغي لن تجد

حينما خلقت الآلهة العظام البشر

قدّرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة

أما أنت يا كلكامش فليكن كرشك مملوءاً على الدوام

وكن فرحاً مبتهجاً مساء

وأقم الأفراح في كلّ يوم من أيامك

وارقص والعب مساء نهار

واجعل ثيابك نظيفةً زاهية

واغسل رأسك واستحم في الماء

Arab_Books

ودلّل الصغير الذي يمسك بيدك

وأفرح الزوجة التي بين أحضانك

وهذا هو نصيب البشرية»

لقد بلغت تجربة كلكامش ـ أو كاتب نصّه ـ أنّ الإستمتاع هو التبرير المنطقي الوحيد للحياة، بل إنّ سدوري التي رأت الموت محيطاً بالبشرية من كلّ اتّجاه دفعت كلكامش إلى أن يعيش حياته إلى أقصاها، فإذا كان لا بدّ من الموت فعش الحياة بكلّ تفاصيلها، وأقطف ما تستطيع من ملذّاتها، وهو ذاته الذي أدركه المتنبّي فكان هو كلكامش وسدوري معاً:

«ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها

فمفترق جاران دارهما العمر»

وقوله [تأخذ وسعها] غير محصور على السكر والعبث، بدليل قوله:

«إذا كان الشباب السكر، والشيـ

ـب همّا، فالحياة هي الحمام»

هناك ما هو مهم أيضاً كالإستمتاع بالعبث تماماً، إنّه [خلق الجدوى]، قد يكون العبث شكل من أشكال الجدوى ـ يقف [جان دمو] إنموذجاً ـ لكنّه في النهاية أحد وجوهها ليس إلا.

وكلكامش ـ الذي سمع قول سدوري ووعاه ـ كره أيضاً أن يكون هناك جدار كالموت يفصله عن الحياة الأخرى، لم يتمكّن من الإقرار بالمحدودية، يمكن أن يتمّ ذلك لكن بعد إنتفاء الاحتمالات

Arab_Books

الممكنة للخروج، إنّه شيخ همنغواي مرّة أخرى، فبالرغم من أنّ سدوري كانت دليله إلى التبرير المنطقي الوحيد لوجوده، رأى أنّ الإستمتاع لا يمكن أن يكون حقيقياً داخل حلقة ضيّقة ولو بسعة الحياة، من هنا جاء قوله:

«يا صاحبة الحانة أين الطريق إلى «أوتو ـ نبشتم»

دلّيني كيف أتّجه إليه؟

فإذا أمكنني للوصول إليه فإنّني حتى البحار سأعبرها

وإذا تعذّر الوصول إليه فسأهيم على وجهي في الصحاري»

هذا يعني، أنّ الحياة توضع بأكملها على المحك، ممارسات وأفكار، الماضي والحاضر معا أمام سلطة السؤال، يقف المقدّس شاحباً بل عارياً من هالته أمام رغبة الكشف عن قدرة الكائن في النفاذ إلى عوالم وسلوكيات أخرى، كما لو أنّ (جان دمو) كان يهيم في صحارٍ رمالها الناس، ومن المستحيل بلوغ هذه الرتبة بغير التخلّص من القناعة كسلوك ينظّم الحياة، والإنطلاق هكذا كما لو أنّ الحياة فرصة، و«الفرصة إبنة البرق» على حدّ تجربة [حسين مردان]

«والمرء يأمل والحياة شهيّة»

وكون الحياة فرصة شهيّة، يمنحها عمقاً آخر، تبنّاه [نيتشه] عندما إعتبرها [مخاطرة] بعد أن ضخّ فيها شحنة هائلة من الخصوصية رفعها إلى مستوى القمار، هنا تحديداً يصبح اليقين بكلّ أشكاله ورتبه ضرباً من الهذيان والعبث، وترتفع اللا قناعة إلى حدّ

Arab_Books

أن تجعل [الحلال والحرام، المسموح والممنوع، الجائز وغير الجائز] يقفان معا على عتبة واحدة، يشير كلّ منهما إلى نقيضه، ويقول هذا أنا. إنّها مرتبة [وحدة الأضداد] التي تكلّم عنها [هيرقليطس]:

«للقوس فعل الموت وإسمه الحياة»

هذا الصعود في الوعي، يقود خطى المنفتح إلى غيابة السّجن.

Arab_Books

الإقامة في شرنقة التفرّد

جاء في الحديث المحمّدي أنّه: «بدأ الإسلام غريباً».

أحبّ أن أتوقّف عند هذه النقطة، أي في البدايات التي تؤدي إلى [الكمون]، أو إلى [الانتشار].

القضيّة هنا، لا تتجاوز حدود وعي الذات المنفتحة لمدى فاعليتها في الوسط الذي يمثّل الواقع المضاد لها، أي إدراك حدود الإمكانية، تحديد الممكن، والعمل باتّجاهه. إلا إنّ الأمر لا يخلو من مجازفة، إنّه تماماً، كالمشي على حبلٍ مرتخٍ في أعالٍ معتمة، إنّها منطقة اللعب بالإحتمالات، لكن، يبقى للذات المنفتحة إمتلاكها ما يجعلها تتفوّق على الواقع المضاد بخطى أكثر موضوعية، والمهم هنا هو كيفية منح الواقع الجديد مبرّراته العقلانية على حدّ تجربة [هيجل].

تحوّل [محمد بن عبدالله] إلى أمّة، تمكّن من الخروج من شرنقة التفرّد، تحوّل إلى فراشة، لقد إستوعب حدود الغربة الأولى، وكانت حياته اللاحقة محاولات في تهشيم جدرانها والخروج منها.

أقام [هيرقليطس] داخل الشرنقة، كذلك [المتنبّي]، لكنّهما بلغا الشرنقة، ولم يبلغا الفراشة.

كان سجن [هراقليطس]، هو إقامته داخل أفكاره بين القطيع،

Arab_Books

بقي غامضاً عند المحيطين به، ليس لأنّه إتّخذ منهج الآلهة في التعامل مع الناس: «الآلهة تشير، ولا تتكلّم»، بل لأنّ الوعي بحدّ ذاته لغةٌ، وما فعله هو أنّه تكلّم بلغة وعيّه الخاص، لم يكن معنيّاً بمستويات الوعي المحيط، لم يكلّم الناس على قدر عقولهم، من هنا جاء إهماله للتفسير، حتى أنّ كتابه «في الطبيعة» كان بنسخة واحدة منحها للمعبد، كما لو أنّ الخطاب خطاب آلهة فقط، بقي فيلسوفاً إلى لحظته الأخيرة.

يمكنّني عدّ هيراقليطس النموذج المثالي للمثقّف الذي يجلس على قمّة الجبل ويطلب من الوادي الصعود إليه، لكن، ألا يبدو الحلاج وهو ينزل إلى الوادي توأماً لهيرقليطس على القمّة؟ القضيّة هنا لا أن تعتزل مكانيّاً، بل الإعتزال داخل اللغة.

نزل (موسى / زرادشت / محمد) من قمّة الجبل ذاته إلى الوادي من أجل رفعه إلى القمّة، الكلّ نزل من الجبل كي يعلن موت (الإله / النظام) القديم، وفي مراسيم عزاء كلّ (إله / نظام) تمّ الإعلان عن تشريع جديد، إصطفّت الوصايا مثل طابور طويل أشبه ما تكون بذيل سحلية أو ذيل أفعى، الوصايا تتماهى مع الجسد، ترى نهاية الذيل ولا ترى بدايته. لقد كان نيتشه رائياً حين حاول كسر رتابة الدائرة، حين صرّح نهائيّاً بموت الإله، كلّ إله.

النبوّة هي الشكل القديم للإيديولوجيا، هكذا إستوعب [ماركس] حركة التاريخ، رأى عمق الفلسفة ومحدودية تأثير الفيلسوف فإتّجه إلى الأدلجة، بعد أن إعتبر الدين أفيوناً، محاولة منه في ربط الأزمات الاجتماعية بأسبابها الواقعية، وقدرة الإنسان على التغيير والخلق.

Arab_Books

ضرورة تفعيل نقد الدين

الذي يثير الإنتباه مع تجربة ماركس أنّه أدرك الطفرة التي حقّقها فيورباخ في نقده لجوهر الدين حين أعاده إلى أرضيّته، كان النقد الذي أسّس له فيورباخ خطوة متقدّمة جداً، غير أنّ ماركس المهووس بفكرة التغيير، الشاب الذي تشبّع بتجربة النقد تلك قفز بعيداً عنها أيضاً، كان عليه لكي يتحقّق أن يبدأ من نهايتها، أن يستلم الإشارة وينطلق، في ركضة بريد لا تنتهي، وقد فعل ذلك حقّاً، لذا نراه يفتتح مساهمته في نقد فلسفة الحق عند هيجل بالقول: «نّ نقد الدين قد إنتهى من حيث الجوهر بالنسبة لألمانيا، والحال أنّ نقد الدين هو مقدمة لكلّ نقد آخر»، هكذا، كان نقد النقد الذي مارسه ماركس بمثابة النزول من الجبل إلى الوادي، ومحاولة الدخول في جسد الفراشة.

لا أريد هنا أن انتقد خطوة ماركس فقد استلم الإشارة وانطلق بها، لكنّه كان اسرع كثيراً من لحظته التاريخية، أريد ان اقول أنّ الطفرة الاجتماعية تحتاج إلى وقت كي تتحوّل عبر التراكم ـ سواء أكان تراكماً زمنياً أو تراكماً خبراتيا ـ من احتمال نظري إلى حقيقة اجتماعية معاشة، كان ماركس يعي ذلك جيّداً، لكنّه في ذروة

Arab_Books

الحماس نسي ذلك أو تناساه، فقوله: «إنّ نقد الدين قد انتهى من الجوهر بالنسبة إلى إلمانيا» يكشف ضمنا أنّ الخطاب هنا هو خطاب نخبة، قرار ماركس بالقفز فيه شيء من عماء النخبة، لقد كانت أوربا ومنها المانيا بحاجة ماسّة إلى فرش أرضية نقد الدين ـ الذي مهّد له التنويريون ـ إلى فترة أطول، أن يتشبع بها الشارع وليس النخبة فقط، لقد سرق ماركس النار، لكن تماماً على النقيض مما فعل بروميثيوس، لقد سرق النار التي كان يمكن أن تذيب جبل الجليد كلّه، وليس جزءه الظاهر فقط، قفز ماركس بالشعلة بعيداً فخلق فجوة، خلقت بدورها أزمة لاحقة، إنفصاماتٍ شخصيّة، خلق سطوحاً ملحدة بأعماق متديّنة.

قفز ماركس إلى (نقد النقد) في لحظة كان الشارع فيها بحاجة إلى نقد الدين أكثر، كان ينبغي أن يكون هناك إستمرار أو إيغال في نقد الدين، كشف جذور أرضية الاعتقاد، أرضيّة تشكّل المنظومة المعرفية للدين أو أرضية تشكّل العقل الديني أيضاً، لا أن يتم رفض الدين تماماً، كان الشارع بحاجة إلى تأثيث خطوة فيورباخ، لقد كان نيتشه الإمتداد الطبيعي الأكثر إتّصالاً بفيورباخ من ماركس عندما فرش «أصل الأخلاق وفصلها» بعد أن أعلن موت الإله، كلّ إله.

أعتقد أن تاريخ الشعوب الإسلامية، الآن تحديداً، يقترب من لحظة فيورباخ زمنيّا، إنّنا الآن فقط ندخل مرحلة نقد الدين والكشف عن أرضيته، لذا أعتقد أنّ الاحزاب الشيوعية التي تأسّست هنا أو هناك داخل جغرافية العالم الإسلامي ـ ومن ضمنها العراق ـ كانت قفزات متهوّرة، إنفعالية، لم تتكئ على تفكيك المنظومة الفكرية

Arab_Books

للعقل الديني الإسلامي التي تسيّج الواقع، لم تنطلق من واقعها الحياتي، بل من واقع الآخر المجاور، وإذا ما كان ماركس قد استلم الإشارة من فيورباخ فإنّه فعل ذلك لأنّه كان ضمن الحلقة الفكرية ذاتها، كانوا نخباً تتراكم معرفيّا، كان مناخ النقد يتصاعد ويتكثّف داخل النخب، هناك نقد العقل الذي أسس له عمانويل كانت، تفعيل حسّ الواجب خارج نطاق العقل الديني، كانت محاولات التأسيس لمجتمع مدني تتراكم، وكانت النخب المثقّفة تتهيّأ للنزول إلى الشارع، لولا أنّه تمّ القفز عليها جميعاً، وأصبح (نقد الدين) لحظة متخلفة إزاء رؤية تتجاوز ذلك إلى نقد نقد الدين نفسه. هذه القفزة خلقت تيّاراً فكريّاً ثالثا كان ولا يزال مرفوضاً من قبل الدينيين ومن قبل الماركسيين، يتمثّل بأولئك الذين واصلوا نقد الدين محاولة منهم في تعديل الانحرافات التي تعيق حركة وصيرورة التاريخ البشري.

ما حدث في العالم الإسلامي بشكل عام، وفي العراق بشكل خاص إنّ الأحزاب الشيوعية بدأت من لحظة (نقد النقد) مباشرة، دون ان تمرّ بلحظة (نقد الدين)، بل إنّ التجارب الشيوعية في العالم الإسلامي لم تتوقّف عند تجارب نقد الدين الجادّة المتاحة ضمن بلدانها، لم يستثمر الشيوعيون العراقيون تجربة الزهاوي في «ثورة في الجحيم» مثلاً، ولا استثمر الهنود تجربة محمد إقبال في «تجديد التفكير الديني في الإسلام»، ولا استثمر المصريون تجربة علي عبد الرازق في «الإسلام وأصول الحكم»، الكلّ قفز إلى الخارج، وكأنّ تجربة الآخر يمكن لها أن تختزل الوقت والوعي معا، الأمر الذي

Arab_Books

جعل الشارع يمتلئ بملاحدة متديّنين، أو بملاحدة طائفيين على حد تعبير الدكتور علي الوردي، بل هذا الذي جعل الحزب الشيوعي العراقي مثلاً ينتهي بعد قرابة ثمانية عقود من تأسيسه بالصلوات على النبي!

حركة التاريخ لا تقفز مراحل، ولا حتى تقوم باختزالها، إنّها حركة ديالكتيكية تراكميّة بحتة، لذا ينبغي استيعاب جوهر الحركة والتماشي معها، بعيداً عن طوباوية الحسّ الثوري الإنفعالي.

الآن وبعد أن نما حسّ الإعتراض، وبعد أن انفتحت نوافذ الاتصال بحيث يمكن نقل وتبادل الخبرات ـ على الصعيد الفردي والاجتماعي ـ وبالتالي تفعيل الوعي الإعتراضي، أرى أنّه أصبح لزاماً أيضاً تفعيل نقد الدين من داخل المنظومة ذاتها، أي تفكيك العقلية من داخلها وإعادة قراءة الجذور التي قامت عليها، وضعها أمام الأزمات الاجتماعية وجهاً لوجه من أجل تعرية هالة التقديس التي تحجّم فاعلية النقد، وبالتالي العمل على تجاوزها سلوكاً وممارسة.

Arab_Books

نفور يجعل الجدار هلامياً

أستطيع الجزم بأنّ تجربة السجن هي المنطقة الأكثر توتّرا في حياة المُنْفَتِح، إن لم تكن المفتاح الوحيد أو الأكثر لمعاناً في عملية التنقيب عن أطواره الكامنة. لا أتحدّث هنا عن المستوى الدلالي للسجن، لا أتحدّث عن البعد المجازي للكلمة (سأفعل ذلك لاحقا)، أتحّث هنا عن تجسّدها الحقيقي العياني، تجربة محدّدة تماماً، أن توضع بين جدران محاولة في تحجيم حركتك، وبالتالي تحجيم تأثيرك وفاعليتك.

من هنا أكاد أن أقول أنّ تجربة السجن مع المتنبّي ـ على صعيد الكشف المعرفي ـ تعادل تماما موت أنكيدو لكلكامش، أو عملية سحب [أبي العلاء المعرّي] من رجليه في مجلس [الشريف المرتضي]، أو اتّهام مجلة [حوار] بالعمالة للمخابرات الأمريكية بالنسبة [لتوفيق صايغ].

عن أثر هذه التجربة الخطرة في بناء الهيكلية الروحية [للمتنبّي]، لا يتحدّث الديوان إلا في نصّين فقط! إلا أنّ خلاصتها ستظلّ ماثلة في جلّ ما سيكتبه لاحقاً.

إنّ الانحياز المسبق ضدّ المتنبّي، أفقد [طه حسين] بصيرته،

Arab_Books

وهو [المعري / الديكارتي]! حينما إعتمد نصّاً ثالثا، أُلْحِقَ بالديوان دون إسناد، وليس ذلك فقط، بل حاول من خلاله النيل من شخصيّة المتنبّي، في كتابه «مع المتنبّي» بقوله: «فهو كما ترى ذليل مسكين»، إنّ [طه حسين] هنا ليس إلا إمتداداً جغرافياً [للعميدي] المصري، صاحب كتاب «الإبانة عن سرقات المتنبّي»، ولا أظنّهما كتبا ما كتبا، إلا تحت تأثير ضربات [المقصورة وأخواتها].

إنّ عدم قدرة الناس على إستيعاب الطروحات الجديدة، أو المغايرة، لا يتعلّق بضيق العقلية، وإنكماش قدرتها على تلقّف ما وراء الكلمات، على العكس تماماً، فتجربة السجن تؤكد أنّهم لمسوا لمس اليد، خروج أفكار المتنبّي على ما إنغلقوا عليه، إلا أنّ عامة الناس، لا تحبّ تغيير حياتها، أو تغيير ما إنغلقت عليه الممارسات الاجتماعية، من هنا تحديداً يستطيع أولوا الأمر ـ الحكام، أصحاب السلطة والنفوذ ـ التحكّم بعواطف العامة، وتحريضها، ضدّ كلّ فكر خارج على السائد.

ورغم إنّ هذا الطرح، يشير إلى أميّة الشعوب، فإنّه مما لا يمكن تجاهله أبداً. فالتغيير لا يمكن له أن يكون إلا بمبادرة فردية، [ذاتٌ] امتلكت جرأة الوقوف أمام التيّار الاجتماعي أو التيّار العام للحياة، لكنّها إن لم تتمكّن في لحظات قليلة، أن تخلق، أو تجذب لها أشباهها، فإنّها سرعان ما تكون ضحية لعب أولي الأمر بأدمغة الدمى، (ما حدث بعد تظاهرات ساحات التحرير يمكن أن يكون نموذجاً صارخا هنا).

لقد كانت وظيفة الحكومة تتجلّى في عملية إخصاء الشعب ـ لا

Arab_Books

يزال هذا النموذج حيّاً في كثير من بلدان الأرض في الوقت الراهن ـ وكانت آلية إشتغال الحكومة لتحقيق ذلك تتطابق مع آلية إشتغال الدين تماماً، من هنا كان ثمّة تحالفات على الدوام بين الحكومة كجهاز سلطوي وبين رجال الدين كمنتجي معرفة تؤثث أرضيّة تحرّك السلطة وفرض إرادتها.

لم يخل التأريخ البشري من خارجين على الإخصاء، حاولوا دائماً كأفراد بدءاً أن يصطفّوا إلى جوار أفكارهم، أي أن يتبنّوها كسلوك فردي، ثمّ بفعل قدرتهم على التأثير، تمكّنوا من الانتشار ضمن مساحات لحظتهم الزمنية.

أتحدّث هنا، عن الذات المنفتحة التي يرتفع جدلها الذاتي، إلى حدّ الصراع مع الآخر، أي التي لا تكتفي بتغيّرها الداخلي، بل تحاول تصدير هذا التغيير إلى الآخرين، وبالتأكيد فالكلام هنا لا يقتصر على الذوات فقط، بل يشمل حركة الشعوب أيضاً، التي تطرح نفسها مُنقذا لما حولها، كالفرنسيين بعد الإطاحة بالملكية، أو كالروس بعد سقوط القيصر، أو كالإيرانيين بعد سقوط الشاه، أو ما يفعله الأمريكان الآن تحت شعار نشر حقوق الإنسان.

لكن، ينبغي الإنتباه هنا أنّ كلّ تصدير عبر الفرض لا يمكن أن يؤدّي إلى خلق ذائقة اجتماعية حقيقية، لقد بدأ القرن العشرون في إيران بثورة ضدّ الحجاب وضدّ التقييدات الدينية، وقبل أن ينتهي القرن كانت هناك ثورة مضادّة أعادت إيران إلى ما قبل التمدّن، ونرى الآن، بعد ثلاثين عاما، كيف يغلي الشارع الإيراني مرّة أخرى ضدّ التقييد.

Arab_Books

مشكلة المتنبّي أنّ الناس تردّد أشعاره، إلا أنّ أحداً لم يجرؤ على طرق باب السجن، من أجل إنقاذه. هذه التجربة تكشف عقم الطروحات التي تشير إلى أنّ المتنبّي كان زعيم حركة سياسية / اجتماعية، علنيّة كانت أم سريّة، رغم إدراكي العميق لمفهوم البراءة القنفذية التي يرفعها الناس ـ على اختلاف أشكالهم ووعيهم ـ حين يداهم حياتهم الخطر.

وقوله في نصّه الأول له داخل السجن:

«كن أيّها السجن كيف شئت فقد
وطّنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة
لم يكن الدرّ ساكن الصدف»

يشير إلى أنّ عمق التجربة معه، لم يصل بعد إلى مرتبة التجسيد، حتى وهو في السجن، ظلّ يقيم داخل أفكاره النافرة. هذا يعني أنّ السجن كمكان لم يأخذ مداه بعد داخل التجربة الروحية للمتنبّي، إلا أنّ الإضافة المتحقّقة في بناء رؤيته للعالم، ستبدو واضحة في النصّ الثاني:

«أيا خدّد الله ورد الخدود»

إنّ مشكلة المتنبّي تكمن في إنّه لم يخلق أشباها، أو لم يلتق بأشباه، كلّ من صادفه لم يكن خليقا بأن يكون شبيها:

«فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي»

الشبيه لا بمعنى المتطابق، بل الذي يستلم الإشارة، ويحلّق

Arab_Books

بها، يمنحها اتّجاهات أخرى، الشبيه نافذة للخروج، للإضافة. [ربّما تحقّق له ذلك مع سيف الدولة، إلا أنّ الشبيه الأكثر قرباً من تجربته الروحية، ولد بعد موته بتسع سنوات، أقصد المعرّي تحديدا].

في نصّه الثاني نجد المتنبّي مقيماً في السجن تماماً، ليس هبوطا، بل انفتاحاً على التأويل، إلا أنّ ثقل السجن جاثم على أطرافه، على حروفه كلّها.

تقول إشارة في أعلى النصّ، أنّ النصّ موجّه إلى [الوالي]، ولا أظنّه إلا رمزاً لله، أو لأعلى قدرةٍ ممكنة، أو لأعلى فكرة، وهذا جزء من ثعلبية اللغة، وقدرتها على المراوغة.

«أمالك رقّي ومن شأنه
هبات اللّجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء
والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء
وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال
فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل
وها أنا في محفل من قرود»
«وفي جود كفّيك ما جدت لي
بنفسي ولو كنتُ أشقى ثمود»

لقد إنطفأ كلّ شيء، وضاق العالم، حتى لم يعد هناك متّسع

Arab_Books

للبصر، لم تعد إلا [ذاته]، وهي عاجزة عن إنقاذه من [بطن الحوت]، لذا إتّجه إلى الأعلى، إلى الرغبة القصوى للذات. إنّه هنا في منطقة الحديث المحمدي: «إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟».

تماما في صرخة [توفيق صايغ]:

«سياط جلاديك كفتني،

محبّي معذّبي، ألا تكفيك؟»

كما لو أنّني أشمّ في البيت الأخير أيضاً رائحة [الحلاج] في صيحته الأخيرة: «إن كنت تتودّد إلى من يؤذيك! فكيف لا تتودّد إلى من يؤذى فيك؟!»

قصيدة السجن هذه، حوار مع [الفكرة العليا]، التي لا تتجسّد إلا في أشخاص، عليهم أن يدفعوا ضريبة المحاولة في الوصول إليها.

إنّها جدل ساخن بين النيّة والفعل، النيّة التي لم تبلغ حدّ الفعل، والفعل بعيداً خلف جدرانٍ تضيّق الخناق على النيّة. هنا يكمن أوّل إنكسار للمتنبّي، لا في نصوصه، بل في حياته أيضاً [ربّما تكرّر معه لحظة خروجه إلى كافور]، لكنّه إنكسار متعالٍ جدّا، يتحدّث عن الخذلان بعنفوان متّصل، سيظلّ هو ـ في منظاره لنفسه ـ خارج المحيط، تجربة منفردة خارج إمكانية التشبيه بتجربة أخرى.

Arab_Books

الإقامة في ثمود

إلا أنّ الخطورة هنا، تتجلّى في هذه الثنائية، التي لم تغادره لحظة من لحظات الجدل الذاتي، فبعد أن كان نبيّاً «كصالح في ثمود»، يطرح نفسه الآن النقيض تماماً، إنّه «أشقى ثمود»، هو في ثمود دائماً، إلا أنّ المتغيّر هنا [أقطاب التضاد]، وأقصد [صالحا] و[أشقاها].

إنّ الرجوع إلى رواية النصّ القرآني، يجعلنا نقف أمام ضدّين متمايزين أحدهما عن الآخر، هناك هويّة خاصّة لكلّ واحد منهما، فصالح هو هو ولا أحد غيره: ﴿كذّبت ثمود بطغواها، إذ انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها، فكذّبوه فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها﴾ (الشمس: ١١ ـ ١٤).

إرتفع الجدل الذاتي عند المتنبّي إلى حدّ أن يكون صالح نبي ثمود هو نفسه أشقاها. لقد إنفتح قانون الهوية الذي أغلقه أرسطو، وأصبح الشيء هو هو، وهو غيره أيضاً، إنّه الإقرار بوحدة الأضداد، خطوة باتّجاه هيجل.

أيقن المتنبّي أنّ وجوده ـ لم، ولن ـ يُدْرِك أمّته من الهلاك بعد أن كان يترقّب ذلك، ويقرّه في ذات الآن:

Arab_Books

«أنـــا فـــي أمّـــة تـــداركـــهـــا الـــلّـــه

غـــريـــب كـــصـــالـــح فـــي ثـــمـــود»

على العكس تماماً، أصبح وجوده سبباً ومدعاةً لهلاكها وفنائها: ﴿وثمود فما أبقى﴾ (النجم: ٥١).

لم يعد العالم جديراً بالبقاء. إنّها إشكاليّة المُنْفَتِح، يطرح نفسه مُنقذا، لكنّه حين يجابه من قبل الآخرين بالرجم، يتحوّل إلى ناقم، يدعو بالويل والثّبور، يمكن اتّخاذ أسطورة نوح ودعائه على قومه نموذجاً مثالياً هنا، وقد خطى الزهاوي نفس خطوات نوح في الدعاء أيضاً بعد أن شعر بالعجز من تحقيق أيّ ثورة أو أيّ تغيير اجتماعي في بغداد.

من هنا، من هذه اللحظة، تغيّر منهج حياة المتنبّي بأكمله، ستظلّ الأفكار منفتحة نافرة، لكن، تتغيّر الكيفية في الطرح. لقد تغيّر شعور الرؤيا، تغيّرت زاوية الشعور فاختلفت الفاعلية، يمكن للمتنبّي هنا أن يكون نموذجاً لطروحات (هوسرل) في ما يخصّ علاقة الشعور بقراءة العالم أو المحيط، لم يعد ساعياً للتغيير، إنّه يرى فقط، أصبح مشرفاً على العالم من العالم. إنّه في منطقة اليأس من إمكانية التغيير، اليأس من تحوّل النيّة إلى فعل، إنّه يقف تماماً في منطقة النصّ القرآني «ولا تذهب نفسك عليهم حسرات».

الشعور بعدم إمتلاك سلطة تحقّق التغيير جعله يتّجه بعينه بعيداً عن التغيير، تماماً كهجرة [توفيق صايغ] بعد نكسة الإتّهام، هنا يتحوّل [المُنْفَتِح] إلى مراقب ينتظر الهباء، أو الخلاص على يد جهة أخرى، تماماً كموقف [المعرّي]:

Arab_Books

«والأرض لـلـطـوفـان مـشـتـاقـة
لـعـلّـهـا مـن درنٍ تـغـسـل»

أو موقف الجواهري:

«يـا أيّـهـا الـطـاعـون حُـلّ بـنـا
وبـمـثـل وجـهـك يُـكـشـفُ الـغـمـم»

أو حسين مردان:

«متى تعود الكفُّ التي تفرك الصدأ»

السجن جعل العالم قفصاً ضيّقاً، بل أنّ العالم إنحسر وضاق إلى حدّ الجسد:

«وإنّـي لـمـن قـوم كـأنّ نـفـوسـهـم
بـهـا أَنَفٌ أن تـسـكـن الـلـحـم والـعـظـمـا»

Arab_Books

الانفتاح الدلالي للسجن

لا يمكن التحدّث عن الانفتاح الدلالي للسجن في تجربة المتنبّي دون المرور بتجربة [أبي العلاء المعرّي] كدلالة مختلفة، إن لم تكن تجربة المعرّي هي مقلوب تجربة المتنبّي، ذاك أنّ الأخير أدخله الناس إلى السجن لتحجيم فاعليته، بينما إقترح [المعرّي] السجن بديلاً للحياة بإرادته زيادة في تفعيل إعتراضه، دخل بيته وأغلق الباب قائلاً: «أنا رهين المحبسين» محاولة في الخلاص، لكن:

«وهـل يـأبـق الإنـسـان مـن مُـلْـكِ ربّـه

فـيـخـرج مـن أرضٍ لـه وسـمـاء»

يمكن أن يكون المعرّي هنا نموذجاً مثالياً لكلّ الذين اتّخذوا موقف الصمت في لحظات القهر القصوى، لقد صمت الكثير من الأدباء العراقيين في الثمانينيات والتسعينيات، وانزووا بعيداً عن الشاشة الإعلامية ـ كما فعل عيسى حسن الياسري مثلاً ـ حرصاً على تجاربهم الذاتية من التسطّح ضمن الحشد المتهافت، والصمت هنا لا يعني التوقّف، بل هو إستمرار إنتاج النصّ حياتيا، خارج الكتابة أحياناً، وبعيداً عن الضوء، ربّما من هنا إعتبر (التاويّون) الصمت

Arab_Books

أقرب توصيف للتاو أو لله إذا ما أردنا الإيضاح، الصمت إقامة خارج الأسيجة.

قلت أنّ الحواس نوافذ على الاحتمال، وأريد أن أقول هنا أيضاً أنّها نوافذ على الحريّة الشخصيّة، لذا فإنَّ فقدان حاسّةٍ ما يعني فقدان ركن من أركان هذه الحرية، وقد تجلّى ذلك في صيحة أبي العلاء المعري: «أنا رهين المحبسين»، لقد جسّدت له تجربته القاسية في بغداد مع (الشريف المرتضي) قساوة ألا يرى.

باعتقادي يبدو المعرّي في ديوانه (سقط الزند) كما لو أنّه كان يرى حتى تمّ سحله من مجلس المرتضي، وبالتأكيد فإنَّ المعرّي إستثمر تجربته القاسية تلك ليس في قراءة وجوده في العالم فحسب، بل وجود الأشياء أيضاً.

لقد تجلّى العالم ـ ببصيرة المعرّي ـ قفصا، والناس طيوراً في القفص، والقفص عند المعرّي ليس إلا عقل الله، فهو حبيس عقل الله، وأنّه مهما فعل فلن يتمكّن من الفرار من أفلاك عقل الله.

إشكالية المعرّي تتجلّى في أنّ (عقل الله) لديه يختلف تماماً عن عقل الله لدى المؤسّسة الرسمية، فالله صاحب حيٍّ وليس إلها سيّدا، الله هو شعرية القانون الذي يسيّر الكون بأرضه وسمائه، والمعرّي كان قريباً جداً من نبض هذا القانون، لكنّه لم يعرف أن يجد لنفسه مكاناً خارجه، لم يتأقلم مع إله المؤسسة، لذا بقي أسير شعرية صاحبه دائماً وخارج ذائقة المؤسّسة والناس.

Arab_Books

مع الوقت إندرج العالم كلّه في الجسد، وهو يقيم، في العالم داخل الجسد.

«أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسد الخبيث»

أصبحت الحياة عند [المعرّي] ضرباً من العبث، أو كما أطلق هو عليه «لزوم ما لا يلزم»، لم يكن البصر إلا مستوىً واحداً من مستويات العماء الذي غلّف اللحظة البشرية برمّتها:

«وبصير الأقوام مثلي أعمى
فهلمّوا في حندس نتصادم»

رغم أنّ دافع القول هنا هو اليأس من الآخرين، إلا أنّه في اللحظة ذاتها يتضمّن طرحاً لشكلٍ جديدٍ لحياةٍ تخرج على المركز باللا مركزية.

كما أنّ قوله: «لا إمام سوى عقلي»، يعني مباشرة لا كتاب مقدّس ولا نبي، يعني أنّني بداية وتجربة خاصّة لها قراءتها للعالم، إنّها تجربة دريدا على أطراف القرن العشرين في كتابه (أطياف ماركس)، لم يعد أمام المعرّي ما يمكن أن يأخذ بيده إلى اتّجاه، حتى ولو كان الانفتاح إلى الجهات كلّها، بل إنّ ذاته وهي تقترح عالمها، تُصبح عدوّه الأول:

«مهجتي ضدٌّ يحاربني
أنا منّي كيف أحترس»

Arab_Books

هكذا يصبح الوجود سجناً، وتصبح الحياة ضرباً من الأشغال الشاقة المؤبّدة، الوجود هو الجدار الفاصل عن المعنى على حدّ تجربة [دريدا].

غير أنّ المعرّي لم يحبس نفسه داخل بيته فقط، بل تجاوز ذلك إلى مستوى الغذاء أيضاً، لقد حبس نفسه عن أكل اللحوم أيضاً، أصبح النباتي الأوّل في أمّة تعتبر أكل اللحم أو طهيه جزءاً من مفاخرها الاجتماعية، أكاد أن أتساءل هل كان المعرّي يستمتع بعذاباته؟ لماذا لم ينتحر مثلاً؟ هل كان تكريس السجون من قبله كردّة فعل على عدم إنتحاره؟ هناك رفض هائل للآخر، بل أنّه لم يكن يجد إلى جواره من الأحياء سوى الله، هو والله ولا ثالث لهما، لم يدخل في الله كما فعل الحلاج، لم يتّحد به، لم يتحوّل إلى واحد مع الله، على العكس تماماً، أثبت وجود إثنين متمايزين وليس واحدا، كانت ذاته مركزاً هائلاً لم يتنازل عنها، لكنّه كان يتفنّن في تحجيمها وتعذيبها، ربّما أراد لها أن تنطفئ إزاء الله، فلم يفلح في ذلك، لأنّها كانت أكثر حضورا، وأكثر عصيانا على الإنضواء.

أقول كانت تجربة السجن عند المعرّي تختلف تماماً عما هي عليه عند المتنبّي الذي بلغت به الأنفة والكبرياء أن يستنكف بقاءه في اللحم والعظم، بدأ يقشعّر ويتقزّز من بقائه في الجسد، فقط لأنّ البقاء فيه يساوي بينه وبين الآخرين، ويشاكله معهم، ثمّ أنّ الجسد بداية الآخر، لا بداية الأنا، كما لو أنّه يحاول الخلاص من الآخر بخروجه من الجسد!

المعرّى كان بلا آخر سوى الله، الله كندٌ ليس إلا.

Arab_Books

دلالة السجن
في تجربة الجيل التسعيني في العراق

يبلغ بالمُنْفَتِح أحياناً أن يرى صيرورة الأشياء تجري دون إرادته، يرى الأحداث تجري دون مشاركته فيها، لكنّها تحاول بصورة أو بأخرى أن تفرض سمتها عليه، كما لو أنّها هو تماماً، تحاول السلطة/ المؤسّسة بكلّ أشكالها ومستوياتها أن تصبغ مَنْ تحت خيمتها ـ أو تحت هيمنتها ـ بصبغتها، هكذا، تجعله ملوّثاً بها، حتى وإن كان بعيداً ورافضاً لها.

لقد كان واضحاً تماماً لشعراء الجيل التسعيني في العراق أنّ اللحظة التاريخية بمجملها كانت تحاول أن تترك بصمتها ليس على كتاباتهم فقط، بل على سلوكياتهم أيضاً، محاولة في جعل الشاعر مسؤولاً عن جزء كبير من الخراب النفسي والثقافي العام، لا أجد هنا أبلغ من تجربة [عباس اليوسفي] تعبيراً عن ذلك:

« آثامي لها مرتكبون عدّة

لم أفلح

أن أكون واحداً منهم»

Arab_Books

أو تجربة سليمان جوني فيما بعد:

«قلت لأبي الذي ضيّعته في طين بعيد: إنّهم يقفون في أوّل الحياة.. يقضمون تفّاحة بالنيابة عنّي، يأكلونها ثمّ يدّعون إنّني آدم. يا أبي أيّها البعيد... كانوا كثيرين ولا يمكنني عدّهم. يا أبي حتى إنّني أكاد أبكي. أكاد أنهار مثل كرسي بثلاثة أقدام. يا أبي لو أنّك فقط تقف بين البداية والنهاية، وتراقب ما يحدث، لو أنّك تخرج من هذه اللعبة؟! لو أنّك تنظر ولو لمرّة واحدة إلى قبري وتبكي؟! يا أبي هذه صورتي. ولو أنزلتها علَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مثل خشبة في بيت قديم..».

كنّا في العراق لحظتها، نتحسّس إنهيار البلد، لا على صعيد المعمار فقط، بل كان الخراب الشكلي لوجه المدينة تعبيراً مجازيّاً لإنهيار البنى المؤسّساتية ولإنهيار العلاقات الاجتماعية.

تضاربات سوق العملة، الانهيار اليومي للدينار العراقي، الأغبياء فقط كانوا يدّخرون دنانيرهم في جرار فخارية، غير أنّ اللحظة التاريخية كشفت أنّ الغبي يمكن أن يكون الرابح الوحيد في اللعبة، فمع قرار النفط مقابل الغذاء الذي أقرتّه منظمة الامم المتحدة عام (١٩٩٦)، قفز الدينار العراقي متسلّقا أكتاف الدولار الامريكي، معلناً بذلك إنهيار طبقة اجتماعية إزاء الصعود السريع لأخرى، ذوبان وتلاشي الطبقة الوسطى، إنمساخ الثقافة الطبقية، لكن ليس بدلالة الفهم الإشتراكي، بل بعبثيّة هائلة، هكذا، عوائل فقيرة تقفز بسرعة صاروخ إلى مصاف العوائل الارستقراطية، وهبوط سريع لعوائل أرستقراطية واصطفافها مع الفقر النابذ، إستبدال الأماكن السريع

Arab_Books

ساهم في خلق ثقافة طبقية مشوّهة، تماماً كمن يستخدم المصعد الكهربائي لكن بعقلية مستخدم سلّم خشبي، هكذا، تعاد هندسة توزيع الأماكن، لكن بفوضى غير خاضعة لمنطق، هذا التشوّه قاد إلى ذبول الروح العامة، إنكسارها وانزوائها، إصفرار الحياة، هرم الأشياء وخرفها القاتم.

كان الإعمار في بغداد قد توقّف منذ منتصف الثمانينيات، ومثل أيّ كائن بلغ ذروته بدأت المدينة بالإنتكاس من الداخل، كانت الشيخوخة الراقص الوحيد على المسرح، رأيت الإصفرار يعلو شارع الرشيد، حقبة تاريخية تتلاشى، تخرج من دائرة الحياة، هكذا يحتضر الشارع أيضاً، كنتُ على الرصيف أصغي لأنفاسه الأخيرة:

«الشيخوخة

التي تطارد الآخرين

لحقتُ بها»

وها هو الشارع وقد خرج من الحياة الآن، بعد أن توقّف جريان الدم في الأوردة والشرايين.

التصحّر الذي جرّد المدينة من إخضرارها، البداوة التي زحفت على الإسفلت، ليس صدفة أن يفتح (فرج الحطاب) باب بيته فيجد خياماً منتصبة في مركز العاصمة، لم يتردّد فرج في تدوين ذلك في روايته «القبور تهاجر أيضاً» عام ١٩٩٨.

كنّا نقيم تماماً في خرف يتقدّم، خرف حياتي هائل، إنسحاب المدنية وصعود (الله) على إيقاع بدوي، أو تعلّقه بعمامة سوداء،

Arab_Books

أمواج دينية متناقضة ومتشاحنة تركب أكتاف الفراغ الثقافي بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي.

صلاة الجمعة المليونية، أعداد غفيرة تقطع الشارع العام تماماً كما لو أنّها تقطع شارع الحياة، فراغ يركب فراغاً، قال فرج الحطاب ـ وكنّا عائدين من شارع المتنبّي ـ وقد أدهشه تكاثر أعداد المصلّين وزحفهم على الطريق العام: إنّهم يتكاثرون بسرعة!

قلت: الدين لا يحتاج إلى عقل.

الشيوعيون في حلقاتهم السرّية ينتظرون المُنقِذ أيضاً، بعد أن أنهكتهم تجارب السجون والتعذيب، بل إنّ البعض منهم كان ينتظر أن يبادر البعثيون بانقلاب على السلطة، لأنّ نظام صدام كان قد خرج على أهداف ومقرّرات البعث ذاته.

كانت لحظة عدمية هائلة، أبواق المؤسّسة الرسمية تنفخ لزبيبة وكاتبها، تُكرِّس صدور ومؤخّرات الصحف لإنتصارات كارتونية في لبّة تنامي بيوت الصفيح.

أحياء التنك التي تكاثرت على أطراف بغداد، الفقر النابذ، أو زحف أهالي المحافظات الذين تجرّدت مدنهم من أيّ خدمة إنسانية، وفي قلب العاصمة أيضاً، طوابير طويلة من أطفال فقدوا طفولاتهم باكراً، كلّ طفل مع عربة صُمّمت له على طوله وحجمه كما لو أنّها ثوب عيد.

مساطر عمّال يلوكون ساعاتهم انتظاراً، وباعة ينزفون أعمارهم في لهبٍ لا نافذة فيه للتنفّس، خيانات أعرض من أن تتّسع لها

Arab_Books

مساحة الأفق هي التي أسّست «خيانات عريضة» لسليمان جوني، وأخطاء أكثر ثقلاً هدمت أكتاف الوقت هي التي حفرت «أخطاء» مهدي القريشي، وعدمية أعلى من أن يُسكت عنها دفعت الصعلوك حسين علي يونس إلى كتابة نصّه (عدميّون).

في وسط كلّ هذا الخراب الحسّي والذهني كان الشعراء التسعينيّون يواجهون الحياة بأسئلتهم الشرسة، وبحسب عبارة أحمد سعداوي: «كانوا يُهيّئون أنفسهم للحظة قادمة»، لم يعلنوا إنسحابهم من الساحة كما فعل البعض من الستينيين والسبعينيين، على العكس تماماً، لم يمنعهم وقوفهم الطويل تحت الشمس والغبار والمطر كباعة أرصفة، أو كباعة متجوّلين، من أن يبادروا إلى نشر (كتاب الإستنساخ) كردٍّ فعلٍ حيٍّ لموتٍ ثقافي وقيمي معلن.

ظاهرة كتاب الاستنساخ تجاوزت حدود الكتابة إلى الممارسة، الخروج من المكتب والمقهى إلى الشارع، هكذا، أن يتحوّل الشاعر ذاته إلى مؤسّسة إعلامية لذاته، لا يكتب نصوصه فقط، بل أن يبادر إلى طبعها أيضاً، أن يعمل على إصدارها في كتاب، ثمّ يسحب منه نسخاً بحسب إمكانياته المادية، التي دائماً لا تتجاوز المائة نسخة.

كانت أمواج الموت تتقدّم بأشكال وارتفاعات مختلفة، وكالعادة دائماً، وبفعل غريزة البقاء، فإنّ الإنسان في اللحظات القصوى للغرق يحاول أن يشير إلى أيّ شيء يمكن أن يفتح نافذة للنجاة، أن يوقف سيلان ذهاب الأشياء، أن يُبقي شيئاً ما للذاكرة الجمعية.

حسام الدين الآلوسي أستاذ الفلسفة الرصين يكتب مقالا في حقّ

Arab_Books

المؤرّخ حميد المطبعي فيتمّ رفضها من قبل عبد الزهرة زكي مسؤول الصفحة الثقافية لصحيفة الجمهورية تحت ذريعة أنّ المقال قد يفتح باباً للإخوانيّات!

نصوص تسعينية ترفضها المؤسّسة تحت عنوان «هذا مما لا يمكن نشره في صحيفتنا الرسمية»، لم يحدث ذلك معي فقط، بل حدث ذلك كثيراً، ومع أكثر من شاعر.

كان هناك إصرار على تغييب أيّ حسّ ثقافي نقدي، قمع كلّ ما يمكن أن يشير إلى وجود حقيقي في ظلّ الخراب الكبير.

كان كلّ شيء موجّهاً لتكريس اللحظة العدمية، لم يتردّد عبد الزهرة زكي ذاته في نشر مقال تحت عنوان «وهم كتاب» ينتقد فيها ظاهرة كتاب الإستنساخ على الصفحة الثقافية لصحيفة الإعلام التي كان يحرّرها زميله عبد الخالق كيطان، وآخر كتب «التسعينيون لا يقرأون»، وكتب حيدر سعيد «نصوصهم تشبه في فقرها فقر كتاب الإستنساخ»، وكتب علي بدر «إنّهم جرثومة على الثقافة العراقية»، ووو الخ.

هذا لم يمنع في المقابل أن تكون هناك شهادات من داخل الجيل، أو معاصرة له أصرّت أن تعطي صوتها ليس للحظتها فقط، بل للقادم أيضاً، لقد أشرت لذلك في أكثر من حوار.

كان الصراع واضحاً جدا، حلبة واحدة ومتصارعون ثلاث، يمكن تشخيص المتصارعين بسهولة وكالتالي:

Arab_Books

* خطّ ضدّ المؤسّسة بشكل صريح، وهم مَن تبنّوا رفع شعار الجيل التسعيني. إضافة إلى مَن تبنّوا الوقوف معه.

* خطّ مؤسّساتي صريح. رافض لكلّ جديد، بل يرى أن الحياة الاجتماعية لم يتغيّر فيها شيء يدعو إلى إستحداث جيل جديد، أو حتى يتطلّب كتابة جديدة (سامي مهدي) إنموذجا. وبالتأكيد فإنّ ممثّلي هذا الخط لم يكتفوا بالكتابة، بل تجاوز ذلك إلى حدّ أن كانوا يحذّرون من يقف إلى جوارنا بأنّنا ضدّ النظام كما فعل (خالد مطلك) مع الناقد الجميل (بشير حاجم)، أو أنّنا مخابرات ينبغي الحذر منّا لأنّنا نتحدّث بجرأة عالية دون أن نثير إنتباه الحكومة كما أخبرني بذلك الجميل (علي محمد سعيد).

* خطّ ثالث كان يمسك العصا من الوسط، وهم من تمّ تسميتهم تندّراً بـ (الأكاديميين الجدد) كما أشار (محمد الأخرس) إلى ذلك في كتابه (خريف المثقف)، في البدء لم يكونوا مع المؤسّسة، لكنّهم أيضاً لم يكونوا مع مواجهة أميّة المؤسّسة.

مع الوقت تحوّل المتصارعون الثلاثة إلى إثنين، بعد أن تحالف المؤسّساتي مع ماسك العصا من الوسط، في محاولة لتسطيح تجربة كتاب الإستنساخ وتتفيهها.

كانت دلالة السجن تأخذ تدرّجات كثيرة، لكن، أهمّها كان، أن يتم تسقيط أخطاء الآخرين وعدميتهم علينا، أن نكون نحن العدميين

Arab_Books

لا المؤسّسة وطبّالوها، ولا الفراغ القيمي الاجتماعي / الثقافي، وكأنّنا المسؤولون عن صعود الخرافة الدينية وصعود الحسّ العشائري أيضاً، في اللحظة التي كنّا نواجه فيها الغباءات كلّها.

هكذا تمشي محمّلاً ومحاصراً بأخطاء التاريخ والجغرافيا، بين آخرين تقمّصوا القضبان، ضربٌ من الإقامة الجبرية في العمق الزمني للأمكنة. المكان تراكم زمني تحاول فيه النفاذ إلى إثمك الخاص، زمنك الخاص، وجودك الذي يعنيك فعلاً، فلا تستطيع، لقد كانت تجربة الجيل الشعري التسعيني في بغداد مثالاً صارخاً لهذا الإحساس.

Arab_Books

عودة أخرى مع المتنبّي

أهـمّ بـشـيءٍ واللـيـالـي كـأنّـهـا

تـطـاردنـي عـن كـونـه وأُطـارِدُ

مع النصّ الأول للمتنبّي في السجن نرى أنّه كان لا يزال مقيماً داخل أفكاره خارج السجن، لم يصل التجريد إلى حدّ التجسيد، على العكس تماماً، فـ [أبو دلف] يبدو كما لو أنّه خارج الواقع تماماً، فكرة من الأفكار لم تتحقّق بعد، لا تزال القيود خفيفة الوطء على رجليه، لكنّنا مع النصّ الثاني، نتحسّس معه تجسّد القيد، حدّ أن نرى مع المتنبّي، أنّ العالم كلّه [أبو دلف]، وعليه فالأشياء ـ التي هي العالم ـ ليست إلا امتداداً لجِيَف [أبي دلف].

هنا ترتفع إشكالية الخروج والإنضواء، إلى درجة النفور من كلّ شيء إلا الذات، وبالتالي، يكون كلّ شيء سواها عدوّا لها، يحاول عرقلتها، إيقافها، أو الإيقاع بها:

«عـدوّي كـلّ شـيء فـيـك حـتـى

لـخـلـت الأكـم مـوغـرة الـصـدور»

انقلبت المنظومة المعرفية التي ترى العالم مسخّرا لخدمة

Arab_Books

الإنسان، لقد بدا للمتنبّي أنّ إمكانية الإنوجاد كانت ممكنة لولا وجود العالم، ولولا وجوده في العالم!

كما لو أنّ كلّ موجود هو إزاحة للذات عن جوهرها، فالأشياء تجرّك إليها لا إليك، وبالتالي، فهي تحاول إخراجك من نطاق منظومتك المعرفية، وجودك الحقيقي، الذي تحاول ـ أنت ـ بواسطته أن تعيد صياغة صورة العالم، لتعيدك هي إلى ما تمّ التسليم به سلفا.

إلتفاف الذات المنفتحة حول نفسها زيادة في التحصّن، وقوّة، أو شدّة في الانتصاب:

«ضاق ذرعا بأن أضيق به ذر
عا زماني واستكرمتني الكرام
واقفا تحت أخمصي قدر نفسي
واقفا تحت أخمصيّ الأنام»

في البيت الثاني ينمحي الإستثناء، كما في قوله أيضا:

«وكيف لا يحسد امرءٌ علمٌ
له على كلّ هامةٍ قدم»

لقد تعوّد أن يرى ذاته فوق كلّ شيء، وتعوّد الملوك والأمراء أن يرونها كذلك، فكان كلّما مدح شخصا، رفعه إلى السماوات، لكنّها في النهاية، سماوات تحت أخمص المتنبّي، وهذا هو سجنه الحقيقي، الذي ترسّب فيه إلى النهاية، قدره أن يمدح أشخاصاً، يقول لهم صراحة: إنّكم تحت قدمي!

Arab_Books

اللحظة الثالثة

النفوس الكبيرة
إبنة
سجون كثيرة

Arab_Books

الإقامة في المُنْفَتَح

كلّ خطوة قيد.

مع المتنبّي الأنفاس قيود.

خرج من سجن (حلب) فدخل سجن (الدهر).

أن ترى نفسك في بوتقة الزمن، ولا خروج منها، ولا خلاص، تحاصرك، لا الناس والأفكار فقط، بل التضاريس أيضاً، تتكافل وتتكاتف الكلمات والأشياء، كما لو أنّ العالم يهيئ نفسه لاعتقالك!

بحار تغور، وقارات تختفي، قبل أن تنزل نطفة هي أنت، في لحظة دون غيرها، في رحم دون سواه، مؤامرة قصوى تُحاك خيوطها، وفخّ لا تنتبه إلا وأقدامك ترتديه نعالا!

«أريد من زمني ذا أن يبلّغني

ما ليس يبلغه من نفسه الزمن»

«أودّ من الأيام ما لا تودّه

وأشكو إليها بيننا وهي جنده»

كما لو أنّ العالم حوض زينة، وهو سمكة فيه.

Arab_Books

الرغبة هناك، خارج زجاج الحوض، إلا أنّ الحياة كلّها داخل الزجاج.

«كأنّما أحواض زينة

أيامنا

ونحن أسماك

لآخرين»

ولأنّه في الحوض أصبح الموت عصيّا.

لكن، تبقى شهوة الخروج، تزرع جسده حمّى، لا يحصد سنابلها غيره، أشبه بحكّة مزمنة، تحاصره ببثورها، فيقفز منها إليها.

هنا تصبح الحياة مّما لا فكاك منه، تكون البداية والنهاية معا، الخلق والنشور يرقصان على صالة العمر، في لحظة تمتدّ من الأزل ولا تنتهي. يتحوّل العمر إلى ضبابٍ أبدي، كلما أوغلت فيه ظلّ بلا حدّ أو نهاية.

«يحاذرني حتفي كأنّي حتفه

وتنكزني الأفعى فيقتلها سمّي»

لحظة إنتباه خاطفة، تغسل العمر من جاهزية غثّة، تجعله قلقاً نافراً من كلّ إجابة. هكذا تندلق الذات المنفتحة على الجسد كاستفهام معترض، لا يبحث عن تبرير لوجوده، بل عن تبرير لإدانة وجوده.

ينفتح النقص، ويتفرّغ العالم من هيبة كماله، مانحاً الذات قدرتها على الإدانة، وجرأتها على التغيير.

Arab_Books

كما أنّ المكان أيضاً، يضيّق من دائرة الوجود، ليمنح الذات الجاهزة رتابتها. المكان لا كتضاريس فقط، بل كأفكار أيضاً، وممارسات اجتماعية، لذا فخروج المنفتح سيكون خروجاً على الطبيعة، وخروجاً على صورة الطبيعة في أذهان المحيطين به.

ضارياً ارتفع لهب النار التي أحرقت [جيوردانو برونو]، فقط لأنّه كسر صورة الكون في أذهان المحيطين، ثمّ ها هو العالم البشري يقرّ بوجود مجاميع شمسية أخرى في مجرّات غير مجرّتنا، لقد أنصفته المعرفة بعد أن خذله ضيق أفق الكنيسة عام ١٦٠٠م.

كما لو أنّ الذات أفعى، تخلع [ثوبها / العالم] العتيق، تدخل في نافذة تمتلك القدرة على الإشارة، لكنّها في نفس الوقت تحمل فرجالها، الذي يحدّد محيط دائرتها.

لقد خرج المتنبّي من الدائرة الجاهزة، كسر ما تمكّن من التابوات، إن لم يكن على صعيد الممارسة، فإنّه فعلها عبر اللغة، لقد تجرّأ على النطق، في أمّة محيطها الصمت والسكوت.

أصبح دائرةً لوحده، في [المُنْفَتَح] تماماً، في منطقة الإشراف على العالم من العالم، في منطقة الإنتماء للذات، أصبح شخصاً ينتمي لذاته، في الاحتمال، بعيداً عن واحدية الرأي والنظر، هو أيضاً قطب تدور حوله الكلمات والأشياء.

أصبح في منطقة الشروع في سؤال الكينونة إلى أقاصي التخيّل، حيث النوافذ مفتوحة كلّها على اللانهاية. لقد إستوعب الكلّ، وخرج على الكلّ، وصل إلى خلاصة سقراط «لا أعرف شيئا»، لا بدلالة

Arab_Books

الجهل، بل بدلالة [لا أعرف أن أستلم شيئا]، المنفتح لا ينتظر الإجابة من غير ذاته.

يتحرّك خارج المحدّد والمرسوم، لم يعد شخصيّة إسمنتية، تكرّرها البيئة كالدواب. لم يعد حشوا، لذا فالتحرّش به، يفضح عقم العدو في الإجابة خارج حدود ما تمّ تحديده أصلا، لكنّه، زيادة في التنكيل، كان يجيب الآخرين باستخدام نهج عقولهم ذاته:

«أتيت بمنطق العرب الأصيل

وكان بقدر ما عاينت قيلي

فعارضه كلام كان منه

بمنزلة النساء من البعول»

كان يحاججهم بعقليتهم، ففي رثائه لأخت سيف الدولة رفع منزلتها فوق منزلة الرجال، لأنّه كان يتحدّث عن تجربة تخصّه، أمّا هنا فإنّه يخاطب أشخاصاً بعينهم، ربّما كانوا المؤسّسة الرسمية ذاتها، إستخدم منطقهم في المحاججة ليكون أكثر تأثيراً وإيلاماً. كانت قصيدته الموجّهة إلى «ضبّة» إنموذجاً صارخاً لهذا الإتجاه، وقد عجّلت بقتله لاحقاً.

[المُنفَتح] أبدٌ، والإقامة في الأبد قيدٌ ثقيل، إمتدادٌ لسلاسل من حديدٍ تلتفّ، وتلتفّ في صخبٍ أيضاً، حتى يوشك الهواء أن يكون حلقة فيها.

هكذا يرتفع الشعور بفوقية [الهمّة]، ودونية [المحيط/ الوجود].

Arab_Books

حين تنفرد الذات، تصبح كلّ كلمة ـ تخرج منها ـ إثماً في نظر المحيط.

«كأنّي دحوت الأرض من خبرتي بها»

«والأرض بعد ذلك دحاها»

(النازعات: ٣٠)

«فما أحدٌ فوقي وما أحدٌ مثلي»

«ليس كمثله شيء»

(الشورى: ١١)

إنّه فخّ التفرّد، تصبح اللغة بحدّ ذاتها قيدا، وعملية كسرها لا تتمّ إلا بضخّ دلالات ـ مغايرة، أو ذات انفتاحات ـ تفوق قدرة اللغة على الاحتمال والإستيعاب، اللغة [بدلالة العقل الذي يتكلّم بها].

الدلالة، ضخّ تصوّر جديد في كلمة عتيقة. الدلالة أيضاً، عقل جديد يكنس عقلا فقد مبرّرات وجوده.

تحضرني هنا تجربة [رامبو] في جحيمه: «إنّني أعي، وغير عارف أن أعبّر عما بنفسي دون عبارات وثنية»، وثنية اللغة تأتي من كسرها لعقليّة سيّجت الكلمات بمفاهيمها، الوثنية هنا هي الخروج على الحارس الاجتماعي الخفي لمستوى اللغة، الخروج على صافرة الإنذار الداخلية التي تعلن نفيرها كلّما كان سؤال الكينونة شرساً.

الوثنية من وجهة نظر فاقد الذات، هي الخروج من اليقين إلى الاحتمال، إلى نسبية الرؤية، هي الخروج من الإنضواء إلى الذات،

Arab_Books

وعليه فإلتصاق المرء بذاته النافرة هو ضرب من الوثنية في أمّة ترى وجودها الحقيقي متمثّلا بذوبان أفرادها في (ذات) الجماعة.

أريد أن أقول أنّ تجربة [تشويش الحواس] التي تحدّث عنها [رامبو] تكمن في [تشويش المفاهيم الجاهزة] عن العالم، أي النفاذ من [التصوّر الجاهز] إلى [العالم بذاته]، أو ترك الترجمة الجاهزة، والإلتصاق مباشرة بالنصّ، والعالم نصّ ينبغي ـ لكي نفهمه ـ أن نلتصق به، رغم أنّ تجربة (دريدا) أثبتت أنّ العالم ترجمة ليس إلا، وأنّنا لن نصل إلى النصّ كما هو أبداً.

Arab_Books

إشكالية الوصول المتأخر

وفي الضجر أيضاً، تمتلئ الذات بتوحّدها، حدّ أن تحتوي العالم، إلا إنّها ـ وهي تحتويه ـ تظلّ سمكة داخل زجاج الحوض.

أن تعي ذاتك، واللحظة التي أنت فيها، فإنّ هذا يضاعف من ثقل جثوم الأشياء على تفاصيلك اليومية، تتحوّل ذرّة الغبار إلى جبل من عقول غثّة، والجبال إلى صدور حاقدة، والحياة إلى مداهنات تُضمِر لؤماً وحقدا:

«وقـلّـة نـاصـر جـوزيـت عـنـي

بـشـرّ مـنـك يـا شـرّ الـدهـور

عـدوّي كـلّ شـيء فـيـك حـتـى

لـخـلـت الأكـم مـوغـرة الـصـدور»

هنا ترتفع إشكالية أخرى، لها من الحضور إلى حدٍّ أن تكون قادرة على توجيه دفّة المنفتح، تأخذه بعيداً حتى عن ذاته أحياناً، إنّها إشكالية الوصول المتأخّر، وهي قراءة من الحدّة بحيث يمكن أن تجعل المُنْفَتِح منغلقاً على ذاته، لا يرى في الشروع جدوى، فيذوي داخل رؤيته لذاته وللعالم، ذاك أنّنا في النهاية نعيش داخل أفكارنا، وداخل رؤانا الخاصّة، بل أنّ المحيط الاجتماعي، العائلة،

Arab_Books

المجتمع، النُظم، التي تبدو ظاهراً كما لو أنّها الحياة كلّها، هي ـ في الحقيقة ـ الأكثر خفاءً وغموضاً حين نبدأ بالتحدّث عن خصوصياتنا الكامنة.

«ووقت يضيع وعمر ليت مدّته
في غير أمّته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرّهم وأتيناه على الهرم»

هذا خروج إلى الضيق الأعلى، إلى الضيق الأكثر ثقلاً واتّساعاً.

فأن تُسيطر عليك فكرة كونك [جئت متأخراً]، تُنهي لديك شهوة التغيير، أو حتى السعي في اتّجاهه، وأتّفق هنا مع (نيتشه) في إنّ هذه الفكرة تحديداً أخطر فخّ يمكن أن يقع فيه المُنْفَتِح الباحث عن معنى أو جدوى من وجوده حيّاً.

فالقول بأنّي [جئت متأخراً] تعني أنّ كلّ شيء قد إنتهى، أي أنّ وجودي فائض، ولا جدوى من التوغّل في العمر، أو في البحث عن معنى. كما لو أنّني أتحدّث عن الوقوع في يقين جمعي!

إلا أنّ هذا الفخ بحدّ ذاته، هو الخطوة الوحيدة التي تكشف مدى فاعلية الذات الباحثة، إنّه يلوي عنق الذات، يكسر العنق، أو يجعلها تطول.

كما أنّ لحظة الوقوف أمام إمتلاء العالم وإكتماله، حتى ولو بالضدّ، يمكن أن تكون حافزاً للخروج عليه.

تصعد (معلّقة عنترة) إلى ذهني الآن، وأنا أتحدّث عن الوصول

Arab_Books

بعد الفوات، لن أتجاهل الفروسية، ولا الأساطير التي طافت حولها، لكنّني أشير هنا، فقط، إلى السؤال الأكثر خطورة في القصيدة كلّها:

«هل غادر الشعراء من متردّم؟؟»

إنّه الشعور بالوصول المتأخر، وهو ما سيصرّح به [هولدرلين] بوضوح صارخ: «جئنا متأخرين».

الفرق ما بين [عنترة وهولدرلين] في وجهة نظري، أنّ الأوّل [سأل]، بينما الثاني [أجاب]. طَرْح المعنى بصيغة سؤال يحمل في باطنه دلالة إستنكار، فالسؤال هو اللا يقين، وهذا هو بالتحديد ما جعل [عنترة] فاعلاً طيلة حياته، على صعيد الممارسة الاجتماعية، فالغزوات التي خاضها، لا يمكن قراءتها إلا على أنّها محاولات في الإجابة، كانت خروجاً على التأخّر. [أقرأ التأخّر بدلالة ثبات التصوّرات الجاهزة، كأن يكون اللون الأسود دلالة للعبيد في الجزيرة العربية يومذاك].

إجابة [هولدرلين] وطّنت إقامته في الجنون المطلق تماماً، في السلبية المطلقة.

ما بين [عنترة وهولدرلين] أستطيع أن أتّخذ [الحلاج] إنموذجاً آخر، أدرك التأخّر، وأقرّ به: «كلّ صلاة هي قضاءٌ لما قبلها»، معنى التأخّر يرتفع عند [الحلاج] إلى تأخّر [فعل الممارسة]، وهذه كوّة في الجدار أتاحت له أن يكون فاعلاً إلى لحظة التقطيع، والحرق.

لقد كانت تجربة الحلاج حلاّ عقلانيا لضعف الخلافة، الوقوف

Arab_Books

إلى جانب الحاجة الاجتماعية ضدّ الهيمنة القشرية للحسّ الديني، من هنا كان إلتفاف وتكاتف المؤسّسة الدينية بكلّ طوائفها المتضادّة في قضيّة التخلّص منه.

يمكنني أن أشير هنا إلى تجربة (طاهر فاضل)، إحدى ذبابات سقراط على الأرض، الذبابة التي حرّضت على الكثير في الحلقات الأدبية والفنّية العراقية، كان وراء كتابة الكثير من النصوص والعروض الفنية، لكنّه، في لحظة تحقّق إقامته المنفردة في أمريكا، تلفّت داخل ذاته فلم يجد سوى ما لم يعد قادرا على البدء به، تغيّر المزاج وتغيّرت الذائقة، اتّسعت العين باتّساع التجربة، لقد مرّ الوقت دون أن يدوّن ما رأى، التأخّر هنا لا أن ترى نفسك في الآخرين، لكن أن ترى نفسك في نفسك، سيشار إلى طاهر كثيراً، في رواية هنا وفي نصّ هناك، لكن، ماذا عن إحساسه هو إزاء نفسه، لقد وقع في مطبّ التأجيل، أفكار ومشاريع كثيرة، لكنّها بقيت في الذهن دون أن يتمّ رفع الستائر عن نوافذها، ظلّت تتقلّب داخل شرنقة التشكّل ولم تبلغ حدّ الفراشة، واخترق الوقت المكان/ الجسد، العمر المنزلق، في حركة بشرية لا تنتظر، تقفز بعيداً ولا تلتفت.

مع هذا، ينبغي للذات أن تظلّ فاعلة إلى النهاية، أن يواصل سؤالها مهمته التحريضية دون توقّف أو إلتفات. الوصول إلى منطقة السؤال إدراك لا يتم إلا بإحراق مسافات طويلة من التلقين والتوارث، السؤال نجاة من تراكم التكرار، يكون للأنا حضورها وتوهجّها الذاتي، سواء أكان حواراً داخلياً أم تأثيراً خارجيا.

Arab_Books

المتنبّي أيضاً أدرك التأخّر:

«أتى الزمان بنوه في شبيبته

فسرّهم وأتيناه على الهرم»

إنّه يتحدّث عن شيخوخة الوقت. كما لو أنّ عملية [التغيير] أصبحت بلا جدوى، ليس لأنّه لا يريد التغيير، بل لأنّ العالم بلغ حدّ الخرف!

لكن كيف بلغ المتنبّي هذا الحدّ من التشاؤم؟ كيف إنقلب من داعية للتغيير إلى مراقب يائس فقط؟

يصلح المتنبّي أن يكون النموذج الأشد توهّجا لنرجسية المُنْفَتِح، الباحث عن معنى، لا يأتي إليه من غيره، هكذا، التجربة الذاتية تخلق وعيّها، وبالتالي تخلق تصوّراتها عن العالم، أي أنّها تعيد تفكيك وصياغة التصوّرات الحياتية الجاهزة.

ولما كان المحيط الاجتماعي غير مُهيّأ دائماً إلا على تقبّل الأفكار التي ولد منها، ونما بين أقطابها، أصبح المتنبّي خارج القطيع تماماً، وبالتالي، أصبح جرثومة ينبغي محاصرتها، وتقليم أظافرها، أو «ضربها تحت الحزام» بلغة أيامنا كما أوصلها لي بعض أعضاء حركة (الوفاق) حين كنتُ في عمّان.

أستطيع القول أنّ تجربة السّجن لم تقلّم أظافره فحسب، بل قلعت أصابعه من جذورها، جعلته يرى كلّ الأشياء ـ لا النّاس فقط ـ موجودة لإعاقته. لم يقف كما وقف [سارتر] في تجربة «الجحيم هم الآخرون»، بل تجاوزها ليكون الجحيم هو العالم بكلّ أشيائه.

Arab_Books

«عـدوّي كـلّ شـيء فـيـك حـتـى
لـخـلـت الأكـم مـوغـرة الـصـدور»

هكذا، على فرس بين جبال تحمل في صدورها الحقد. لم يتمكّن من أن يكون تلميذا للمسيح، في «أحبوا أعداءكم» (إنجيل متى: إصحاح ٥). لقد كان قريباً منهم، بل كان فيهم، لكنّها معايشة الأضداد:

«ومـا أنـا مـنـهـم بـالـعـيـش فـيـهـم
ولـكـن مـعـدن الـذهـب الـرّغـام»

إنّه ـ برغمه ـ بينهم. لم يكن في منطقة الحبّ، بل في منطقة النكد.

«ومـن نـكـد الـدّنـيـا عـلـى الـمـرء أن يـرى
عـدوّا لـه مـا مـن صـداقـتـه بـدّ»

Arab_Books

قراءة من زاوية أخرى

ثمّة إشكاليةٌ لا يمكن تجاوزها أيضاً، وهي إمكانية قراءة الوصول المتأخّر من زاويةٍ أخرى، أقصد زاوية الوصول قبل الأوان، فالأفكار كالأشياء تولد، ثمّ تّتجه بسرعٍ متفاوتةٍ نحو الشيخوخة فالخرف..

و[المُنفَتِح] الذي يأتي أوّلا، يصل بعد إستتباب الأمر لمفاهيم معيّنة، أي بعد أن بلغت المعرفة لإتّجاهٍ ما حدّ الجهل إلى أقصاه، لكن ليس إلى نهايته، فالجهل ليس صفر المعرفة، بل هو معرفة فقدت مبرّرات وجودها كممارساتٍ اجتماعية، معرفة لم تعد واقعية لأنّها فقدت عقلانيتها بحسب لغة هيجل، وكما قلت سابقاً فإن وجود حالة واحدة خارج نطاق التعريف هي إشارة لقصر التعريف على احتواء الكلّ، وبالتالي فإنّ هذه الحالة بداية الخروج والتحوّل.

Arab_Books

(١)
تحريف البداية الأولى

أشعر هنا بحاجة إلى إعادة قراءة أسطورة آدم وإبليس ثانية، لكن من زاوية أخرى، لقد إنتبه الحلاج في «طاسين الأزل والإلتباس» إلى أنّ دعوى التوحيد هي التي منعت إبليس من السجود لآدم، أريد هنا أن أزيد من تصعيد قراءة الحلاج ذاتها.

في النصّ القرآني، أنّ الله خلق آدم من طين، وفي بعض الأحاديث أنّه خلقه على صورته، ورد ذلك في سفر التكوين أيضاً. إذن، آدم هنا ليس سوى صنم طيني لله، لقد أراد الله، أو يهوه، تحت تأثير رغبة غامضة، أن يرى الملائكة تسجد لصنم على شاكلته هو، أي أنّ السجود للصنم كان بأمر من الإله ذاته، وقد حصل ذلك في داخل الجنّة، لقد سجدت الملائكة لآدم شبيه الإله، أو التوأم الطيني للإله، وهنا يكون إبليس هو الرافض الأوّل للسجود إلى صنم.

لقد تمّ تحريف القصة بحيث أصبح إبليس عاصيا، وأصبح الحوار بعيداً عن حلبته الأولى، أصبح الجدل حول قيمتي النار

Arab_Books

والطين، وليس حول مفهوم التوحيد، لقد فتح الحلاج نافذة الرؤية، وأظنّ أنّ المقرّبين له كانوا على علم بما يريد.

وبالتأكيد فإنّ تحريف القصّة لم يتوقّف على تغيير جوهر الجدل، بل تمادى المحرّف في جعل إبليس داعياً للسجود إلى الأصنام، لقد عملت المؤسّسات دائماً على تشويه صورة الخارج عليها، تماماً كما تفعل الكثير من القنوات الفضائية المؤسّساتية مع المعارضين الآن، أي إنقلب إبليس من ملك رافض للسجود، كما يؤكّد ذلك النصّ القرآني، إلى داعية لعبادة الأصنام!

لقد تمّ طرد إبليس من الجنّة، إذن فقد خسر معركته في إقرار التوحيد في الجنّة، ومن النصوص المتبقّية يبدو أنّ (يهوه أو الله) كان يقف بالضدّ من التوحيد، لذا أصبح إعتراض إبليس خروجاً على رغبة الإرادة العليا، وعليه فإنّ تأريخه المدوّن كتبه المنتصر سواء أكان يهوه أو الله، من هنا تمّ تجريد الملاك إبليس من كلّ ما كان لديه قبل الإعتراض، لكن، مع تهريب إشاراتي خفي جداً إلى أنّه كان طاووس العبادة في الجنّة، كما لو أنّهم أرادوا به المتباهي بعبادته كالطاووس بذيله، أي تحوّلت عبادته الأولى إلى إدانة ضدّه، غير أنّ هذا التهريب البسيط جعل الحلاج يقطف أولى ثمار الحقيقة المطموسة، وأظنّني هنا قد أكملت قطاف ما قد بدأ.

Arab_Books

(٢)
لا إكراه في العيش

تصاعد القلق تجاه أيّ مفهومٍ اجتماعي يعني أنّ هذا المفهوم بحاجةٍ إلى إعادة قراءةٍ جديدة، بحاجة إلى تفعيل أزمته ورفعها إلى مستوى المطالبة بالتغيير.

أعتقد أنّ الجنس كمفهوم اجتماعي أخلاقي ليس بعيداً عن ذلك.

لا يزال موقف العالم البشري قلقاً إزاء [الزواج المثلي]، سواء أكان هذا القلق دينيّاً أو نفسيّاً، إلا إنّ هذا الزواج كممارسة اجتماعية يثبت حضوره الفعلي بقوّة ممثّليه على ساحة الحياة في اللحظة الراهنة، بل لا أستبعد أن يتمّ تشريعه كعرف أخلاقي قبل نهايات هذا الجيل على الأقل في الغرب كلّه.

أ ـ العالم لا يحتاج إلى جبناء

لأكثر من مرّة حضرتُ إحتفال المثليين السنوي في سيدني، أذهب إلى هناك فقط من أجل أن أكون قريباً وشاهداً لـ (شهوة الإنوجاد) بحسب تعبير أحمد سعداوي، ومن أجل تدوين شعاراتهم التي تنمو مع كلّ سنة، أذكر أنّهم رفعوا شعاراً يقول: «الجبن

Arab_Books

والخوف ينتجان عالماً قديماً»، ورفعوا إلى جانبه شعارا آخر يقول: «أنا أيضاً مسيحي أيّها السيد المسيح»، في اللحظة التي يشخّصون فيها أنّ العالم لا يحتاج إلى جبناء، وهو عكس شعار بريخت في مسرحية غاليلو: «العالم لا يحتاج إلى أبطال»، نراهم في شعارهم الثاني يطالبون الكنيسة بإعادة قراءة الجنس إنسانيا، بعد أن تمّ تأطير الجنس بقراءات أصبحت عرشاً تجلس عليه آلهة الأديان والأعراف والتقاليد المتحالفة معاً، والتي يسند ويدعم بعضها بعضاً.

المثليّون ليسوا جبناء لأنّ الحياة لا تحتاج إلى جبناء، ولأنّ الجبناء لن يعبروا إلى المستقبل، هذا هو قانون الإنتخاب الطبيعي لمجرى الكائنات في العالم.

ب ـ فصل الجنس عن الدين

إنّ خروج المثليين إلى الحياة لا يعني انقطاعهم عن الماضي تماماً، لأنّ شعارهم الثاني «إنّنا مسيحيون أيّها السيد المسيح» يتضمّن المطالبة بفصل الجنس عن الدين، وهي خطوة متقدّمة أيضاً، ولاحقة تاريخياً لفصل الدين عن السياسة، وعليه فإذا ما كان للدين مكان إلى الآن فيجب أن يعود إلى جذره البعيد، إلى علاقة الفرد بإلهه فقط، علاقة فردية لا يتأسّس عليها نظام اجتماعي، بل سكينة أو طمأنينة فردية، هكذا، لكلّ فرد اعتقاده الذي يركن إليه، وممارسة الجنس بشكل مختلف أو إقامة علاقات جنسية خارج التأطير الديني العام لا يعني رفض الدين كلّه، على الدين أيضاً أن

Arab_Books

يقفز من أجل مواكبة اللحظة، بهذه الطريقة فقط يحافظ الدين على وجوده الآن أو لاحقاً.

وقد بدأ بالفعل مباركة الزواج المثلي عند بعض القساوسة الليبراليين المعتدلين داخل الكنيسة الإنجيلية في الولايات المتّحدة وكندا، حتى وصل أخيرا إلى فرنسا (٢٠١٣)، بل تمّ عقد زواج كاهنين مثليين هما (كويل ولورد) داخل كنيسة إنجيلية، وكان بين الحضور عدد من القساوسة والمطارنة، وقد إفتتح الأسقف (مارتن دودلي) مراسيم الزواج بقوله: «أيّها الأحباب لقد إجتمعنا هنا تحت عين الربّ لنعقد قران هذين الرجلين ونربط بينهما بميثاق مقدّس من الحبّ والإخلاص.. هذا الميثاق يعلّمنا سرّ الوحدة بين الربّ وخلقه، وبين المسيح والكنيسة»، وبالتأكيد فإنّ هذه الخطوة ليست يتيمة، والعالم الآن في طور التهيؤ النفسي لتقبّل ما يطالب به الشجعان.

لقد أصبح هناك أكثر من بلد على الأرض يمكن أن يذهب إليه المثليّون لعقد قرانهم بعضهم مع بعض، وبالفعل أعرف شابين أستراليين ذهبا ليتزوّجا في كندا لأنّ أستراليا إلى الآن تناقش إقرار قانون زواج المثليين، ولا أشك في أنّ لحظة إقرار القانون قادمة تحت ضغط مطالبة المثليين والمؤيدين لهم أيضاً.

ج ـ الجنس شأنٌ شخصي

ينبغي الإقرار بأنّ الجنس شأنٌ شخصيٌ جداً، بل هو أهم العلامات الدالة على الحريّة الشخصيّة للفرد، ولا علاقة للجنس

Arab_Books

بالإيمان أو بالأخلاق، ولا علاقة للجنس بالوعي، ولا يخضع لتشريع، ولا تحدّده أخلاق مفروضة، الجنس تحدّده الميول النفسيّة وحاجات الجسد، وقبل كلّ ذلك رضا وقبول الأطراف الممارسة له، وهذا الخطاب يشمل المثليين وغير المثليين أيضاً، فالمثلي عاجزٌ جسديّاً ونفسيّاً عن توجيه ميوله الجنسيّة إلى الجنس الآخر، الرجل تجاه المرأة، أو المرأة تجاه الرجل، تماماً كما أعجز أنا عن توجيه ميولي إلى الذكور، ولا أتحسّس بأيّ إثارة تجاه جسد الرجل أو حتى تجاه مؤخّرته، في حين تستفزّني مؤخّرة كلّ إمرأة، إنّها ميول شخصية جداً.

د ـ التكرار اليومي حالة من العماء

التكرار يجعل الممارسة الاجتماعية تبدو وكأنّها أمرٌ طبيعي، وبالتأكيد سيبدو الخروج على الممارسة الاجتماعية المتكرّرة شذوذاً وخروجاً على القانون الطبيعي، هذا الكلام لا ينحسر على حالة اجتماعية دون غيرها، أو فكرة دون غيرها، فكلّ سلوك أو تفكير سواء أكان فردياً أم جماعياً يجري في هذا المجرى، التكرار يجعل الممارسات الاجتماعية والأفكار الحاضنة لها تبدو وكأنّها هي الحياة كلّها، وهنا أسّ الإشكال، حين يتجرّد الفرد أو المجتمع من قابلية النظر أبعد من حلبة أو نطاق التعوّد.

التكرار اليومي حالة من العماء لا يمكن النجاة منها الا بكسرها، ولا يتمّ كسرها الا بقبول رؤية الآخر المختلف، ليس قبول التفكير فقط، بل قبول السلوك المختلف أيضاً.

Arab_Books

هـ ـ الناس تخلق أديانها على شاكلتها

لا أستوعب حقّا، ويبدو لي غريباً جداً هذا التدخّل الفضولي السافر والشاذ حقاً في ممارسة هي من أهم خصوصيّات الفرد، والكارثة أنَّ هذا التدخّل الشاذ يتمّ تحت أغطية دينية أو أعراف اجتماعية قديمة يعاد إنتاجها، والحقيقة أنَّ الناس يخلقون أديانهم وأعرافهم على شاكلتهم، يُسقِطون فضولهم على الدين المخلوق، يجعلون الإله المخلوق فضولياً إلى حدّ أن يكون أشبه بجاسوسٍ يتتبّع خطاك حتى وأنت نائم، يخلقون الإله وينصّبون أنفسهم حرساً له، حتى أنّهم بسلوكهم يجعلونه إنساناً مجرّداً من أيّ حسٍّ إنساني بتقمّصهم إرادته، واستخدامهم أقصى حالات العنف ضدّ الخارجين على قداسة الجنس المعاد إنتاجها عبر التوارث ليس الا.

و ـ لا إنسانية كلّ ما هو لا عقلاني

أعرف تماماً أنّ الإنسان عبر سلوكه اليومي يعكس اعتقاده الشخصي، لذا فالجانب الوحشي للممارسات التي تتمّ تحت أغطية المقدّس تكشف تماماً مدى ضيق وانكماش الوعي الفردي والجماعي لفئة من الناس هنا أو هناك على الأرض، وبالتأكيد ثمّة اعتقادات موروثة كأعراف وعادات فقدت بعدها العقلاني، وأنا هنا أستخدم جملة هيجل حول «لا واقعية كلّ فعل لا عقلاني»، لكن ليس من أجل إفراغ اللاعقلاني من واقعيته فقط، بل من إنسانيته أيضاً، أريد أن أقول هنا، أنّ كلّ فعل لا عقلاني هو بالضرورة فعل

Arab_Books

لا إنساني، وبالتالي فإنّه يكون قد فقد مبرّر حدوثه، وأصبح خارج نطاق اللحظة الراهنة، أصبح فعلا ماضوياً.

غير أنّ الإشكالية التي تظلّ عالية الحضور هنا تكمن في أنّ الناس، أفراداً وجماعات، يعتقدون أنّهم يمثّلون الجانب الأكثر إنسانية حتى وهم يمارسون أقصى حالات العنف ضدّ بعضهم البعض، بل أنّهم يتفنّنون في إبتكار بشاعة العقاب حين يكون الفعل تجاوزا على قداسة الجنس أو الدين، مثل تهشيم رؤوس الإيمو بكتل إسمنتية! أو غلق فتحات أدبار المثليين الرجال بالإسمنت!

ز ـ كائنات ومفاهيم من وسخ الأظافر

من أجمل ما قرأت في الأساطير السومرية، أنّ الآلهة خلقت أشخاصاً عديمي التفكير وعديمي الحواس، لمطاردة الأبرياء (كما في أسطورة تموز)، المدهش في الأمر أنّها خلقتهم من وسخ أظافرها. ما يحدث الآن ـ وتكراراً لإنتاج الأسطورة ـ أنّ الناس تخلق عادات وتقاليد من وسخ أظافرها، وأنّها عبر هذه العادات وهذه التقاليد تطارد الخارجين عليها وعلى التكرار، تماماً كما حصل في الأسطورة.

ح ـ كلّ حالة لا تمثّل إلا نفسها

أريد أن أقول: لسنا أسوياء في إختلافنا عن المثليين، كلّ ما في الأمر أنّ ميولنا الجنسية تّتجه صوب الجنس الآخر، إنّه أمر يرتبط ببنية الجسد والإفرازات الداخلية التي توجّه الميول، دون أن أنسى

Arab_Books

هنا الواعز النفسي أيضاً، ولا يحقُّ لنا ـ نحن غير المثليين ـ أن نتحدّث عن المثليين كمرضى، فهذا شكلٌ آخر من أشكال التمييز الجنسي، ثمّ ماذا عن إمرأة بعضوٍ جنسيٍّ ذكري؟

حدَّثتني (بشرى الدراجي) عن كائنٍ ليس برجل ولا امرأة، يرتدي ثياب امرأةٍ وله هيئة رجل، لم يكن يُسمح له بمخالطة الرجال لكونه امرأة، ولم يُسمح لها بمخالطة النساء لكونها رجلا، هذا الكائن الثنائي كان يُحبس في غرفة على إنّه مجنون. حدث ذلك في مدينة الثورة ببغداد. هذا الكائن يتكرّر دائماً، ويتمّ التعامل معه بقسوة هائلة إن لم تتم تصفيته بسرعة.

وبالتأكيد فإنّ المطربة [مسعود العمارتلي] ـ الذي «كان صوتها يقف على الحدّ الفاصل بين الأنثى والذكر» على حدّ تعبير [طه الطاهر] ـ سيبقى علامة إستفهام حول إشكالية الجسد حين ينتمي لحالة الذكر وحالة الأنثى معاً.

ط ـ حادثة متكرّرة

كنت حلاقاً في القرية، وكان هو أصغر منّي سنّاً، كان من زبائني كان يتحدّث لي عن أخذ الثأر من قاتلي عمّه، ثمّ اختفى فجأة، تمّ قتله من قبل عائلته تحديداً بعد أن اكتشفوا أنّه كائناً مثليّاً، وكما هو معتاد فقد كتم الناس أمره، دخل في المسكوت عنه، أصبح مع الوقت نسياً منسياً، رغم حضوره الكثيف كتجربة حياتية داخل بنية المجتمع!

Arab_Books

ي ـ الجنس يخلق اللغة

الجنس ونتائجه يحدّدان صياغة المفاهيم ويمنحانها صرامتها أو ليونتها، لذا فالنظام الطوطمي/ التقليدي المتوارث للجنس يخلق أنظمته الأخلاقية، وبالتالي يخلق اللغة التي تؤثّث هذه المنظومات، غير أنّ تجربة المثلي وهي منبوذة وفق التقاليد الطوطمية المتوارثة فإنّه يحدث إرباكاً وخلخلة ليس فقط داخل المفاهيم، بل داخل اللغة الحاضنة ذاتها، المثلي أشبه ما يكون بالثقب الأسود، فكما تنهار قوانين الفيزياء الحديثة على عتبته، كذلك تنهار تجنيسات اللغة حين تقترب من المثلي فهو هو وهو هي أيضاً، والعكس قائم.

اللغة العقل، وانهيار اللغة يعني انهيار العقل بدلالة المنظومة الفكرية التي يتحرّك بها فرد واحد أو مجموعة من الأفراد.

وجود المثلي يكسر بالضرورة صرامة القاعدة الأخلاقية إن لم ينسفها من الجذر أصلاً، يجعل الأخلاق كما هي تعريفاً قاصراً عن احتواء الجميع، وبالتأكيد فإنّ المؤسّسة التي تقف داعمة للتعريف الأخلاقي لن ترى القصور داخل رؤيتها، بل ستقرأ الآخر الذي عجز التعريف على إحتوائه، أقول ستقرأه باعتباره خارجاً على العرف والتقليد، وهنا نكون أمام ضحايا أحياء لتنظيم اجتماعي قديم لم يعد صالحاً أخلاقيا ولا حياتياً بفعل تصعيد مفهوم حقوق الإنسان العالمي. أقول أنّ لحظة رفع حقوق الإنسان هي اللحظة الأولى للخلاص من الفكر الطوطمي السحيق.

Arab_Books

ينبغي فتح ملف الجنس بقوّة، فثمّة قمع كبير يراكمه الماضي على الحاضر ينبغي أن لا يتمّ تمريره إلى المستقبل.

ط ـ توسيع دائرة الجنس

لا زلنا إلى الآن نتّصل بصلات نسب إلى الطوطمية الأولى في تبنّي مفاهيم اجتماعية بحذافيرها دون أن نتجرّأ على الاقتراب منها أو نبش ترابها لا كبحث وتعليل، بل كرغبة على التغيير والنجاة أيضاً، هذا الحديث يشمل العالم المتحضّر أيضاً، لأنّ آثار التابو لا تزال تتفرّع داخل السلوكيات العامة، لكن تحت أقنعة وثياب جديدة.

وأراني هنا ملزماً ـ إتكاءً على أمانة الإصغاء للذات دون كوابح وبلا سدود ـ بفتح هذا الباب ليس لأنّه رغبة دفينة تحاول أن تتحقّق، بل لحقيقية وجوده في كواليس الحياة اليومية، بل أنّ أهم كتب الأدب والمعرفة جاءت نتيجة مباشرة له، أو أنّها دنت منه ولامسته قليلا.

أقول: لا أستبعد أن تعاد قراءة مفهوم (زواج المحارم) في لحظة قادمة، ولا أشكّ في أنّ الإنسان القادم سيزيل التابو الذي يحيط به من كلّ جانب، سيعيش حياته كما يريد في الضوء وليس كعادّة سريّة، قد تنكمش وتشمئز وجوه الكثيرين لذلك، لكن، عدم رغبتنا بالأمر لا يلغي الوجود الفعلي له، ولا يلغي الحتميّة القادمة رغم أنف الأخلاقيات والدساتير التي تتقزّز من جرأة التصريح.

لقد كانت أحكام الإعدام كثيرة في العراق، وقد حدّثني القاص (جلال نعيم) أنّه سأل والده (نعيم حسن) وكان قاضي جنائيات مدينة

Arab_Books

صدام في منتصف التسعينات فأكّد له أنَّ نسبة غير قليلة منها كانت تّتم تحت مسمّى (الزنا بالمحارم).

إتكاءً على الأديان التوحيدية، وبحسب الأسطورة الدينية التي تعيد كلّ البشر إلى أب واحد، فإنّ آدم أنجب عشرين توأماً، كلّ توأم ذكر وأنثى، وكان من حقّ الذكر أن يتزوّج أيّ واحدة من أخواته باستثناء التي ولدت معه، أي أنّ البداية وفق العقل الديني كانت مع تحليل زواج الأخ من أخته، وقد استمر هذا النوع من الزواج كعرفٍ اجتماعي سومري وفرعوني إلى فترات طويلة، بل لا تزال المرأة المصرية تنادي زوجها كأخ.

إضافة إلى ذلك أباحت المزدكية زواج الأب من إبنته، كما أنّها رخّصت باشتراكية النساء أيضاً، ولم يقتصر تبنّي المزدكية على الفرس فقط، بل تبنّاها بعض العرب أيضاً، لقد مات (لقيط بن زرارة التميمي) وكانت ابنته (دختنوس) تحته أي زوجته، وقد رثته بقصائد مؤثّرة.

هذا يعني أن هذا الضرب من الجنس كان موجودا بشكل علني، ولم يكن لا أخلاقيا، على العكس تماماً كان يمثّل (سنّة إلهية) كما في أسطورة آدم، أو (عرفاً اجتماعياً) كما في العراق ومصر وبلاد فارس، أي أنّ إقرارا بطبيعيته كان موجودا، وبالتالي لم يكن عيباً ولا عاراً، وحين نعود إلى (لقيط بن زرارة) نجد أنّه كان قائد بني تميم، وزواجه من ابنته دختنوس مذكور في أمهات كتب الأخبار العربية، ووصول خبر كهذا إلينا رغم كلّ نقاط الرقابة المؤسّساتية على مرّ التاريخ، فإنّه يتضمّن إعترافاً صريحاً بعرف اجتماعي كان

Arab_Books

موجوداً على الأقل في تميم أكبر عشائر العرب، بل أنّ بعض كتب التاريخ هرّبت الينا معلومة تشير إلى أنّ (سجاح) نبية بني تميم أباحت زواج المرأة من رجلين في وقت واحد، ولو أنّها انتصرت في الحرب ضدّ المسلمين لبقيت سنّتها هي المعمول بها، لأنّنا نعيش داخل أفكار إنتصرت ليس إلا، الأمر لا علاقة له بصحّة هذه الأفكار أو خطئها، بل أنّ تكرارها اليومي عبر الممارسة جيلا بعد جيل جعلها تبدو طبيعية، وإنّ ما عداها ليس طبيعياً، إنّنا نعيش داخل وهم ما نراه طبيعيا ليس إلا.

أذكر أنّ صديقاً لي كان يمارس الجنس مع عمته (أخت أبيه) وإستمرت العلاقة بينهما بلا محاكم، وأعرف امرأة أخرى كان عمّها أوّل شخص مارس الجنس معها، وإلى أن خرجتُ من العراق عام (٢٠٠١) كانا يعيشان معاً داخل نطاق العائلة في بيت واحد.

ما يُعلن عنه في المحاكم ليس هو العدد الحقيقي بالفعل، بل ما يُعلن عنه من ممارسات هو ما يتمّ كإغتصاب بالدرجة الأولى، أما ما يتمّ برغبة الطرفين فخارج نطاق الإعلان والمحاكمة، وما أتحدّث عنه هو هذه الممارسات التي تتمّ برغبة متبادلة، تتم بقبول ورضا الطرفين لكن كحياة سرّية، والسؤال هنا هو متى نتجرّأ على أن نعيش حياتنا بإعتبارها شخصيّةً جدا، وغير مؤطرةٍ بما لا يمتّ بصلة لرغبات وميول الفرد ذاته، أتحدّث عن الميول الطبيعية التي لا تتجاوز الحرية الشخصيّة للآخر، أي، لا إكراه في العيش.

لا بدّ إذن من آخرين تتوفّر لديهم كميّة من الحماية الاجتماعية والشجاعة والجرأة تعادل ما توفّر عند [كاليجولا، لقيط بن زرارة أو

Arab_Books

اللورد بايرون] مثلاً، فالقضايا تحتاج إلى مبادرات جريئة تفرض حضورها كممارسة اجتماعية ينبغي الإقرار بها.

أنا واثقٌ تماماً من قدرة الإنسان على الإصغاء لرغباته الداخلية بعيداً عن كلّ رقابة، لذا ـ عاجلاً أو آجلاً ـ سيتمّ استئصال الجذر الطوطمي الذي لا يزال يغلّف حياتنا على الأرض، سيعاد رسم هندسة الجنس مرّة أخرى خارج نطاق السلطة الدينية والعرفية وخارج حتى نطاق الدساتير المدنية الخجولة أيضاً.

ي ـ دور التكرار والتعوّد والتقادم في شلّ القدرة على الانفتاح

من خلال قراءة المراحل التاريخية الاجتماعية للوجود البشري على الأرض، إضافة إلى قراءة التحوّلات الكبرى في مسار المجرى العام لتاريخ الأفكار، فإنّنا نقف أمام وضوح صارخ يعلن أنّ المفاهيم الاجتماعية ـ الأخلاقية تحديداً ـ هي نتاج بشري مقترن بشروط مرحلية ضمن لحظات تاريخية معيّنة تتبدّل هذه المفاهيم مع تبدّل شروط اللحظات التاريخية، أي لا وجود لمفاهيم أخلاقية تبدأ ولا تنتهي، يمكن إعتماد تأريخ أيّ بيئة اجتماعية ومتابعة التحوّلات الأخلاقية على مدار الوقت كعيّنة لذلك.

لكن، لماذا تبدو هذه المفاهيم الأخلاقية طبيعية دون غيرها في اللحظة التي يتمّ تبنّيها بشكل كامل من قبل هذه البيئة الاجتماعية دون سواها؟

كمنشّطات للإجابة سينتصب دور التكرار والتعوّد، إضافة إلى

Arab_Books

تقادم العهد في ترسيخ مفهوم أخلاقي معيّن بالذات وليس نفيه، وسيكون أيضاً واضحاً جداً، لماذا في حالة حصول تغيّر سريع داخل قراءة المفاهيم وفرض هذا التغيّر بالقوّة وليس عن طريق التحوّل التراكمي الطبيعي، إنهيار هذا التغيّر على الصعيد الاجتماعي في حالة زوال القوّة والفرض، لكنّه قد يعود ليحتل الساحة نتيجة للتراكم الكمّي.

لقد خرج الذين سنّوا قوانين الأخلاق ـ في العالم الإسلامي نموذجا ـ على أخلاقيات من كانوا قبلهم لأنّهم رأوا أنّها تقف عائقاً وتحجّم فاعلية مشروعهم السياسي والاجتماعي بعد أن دثّروه بدثار الدين، لقد تمّ القضاء مثلاً على النسب الأمومي ـ الذي كان معمولاً به أيضاً ـ وتوحيد النسب كلّه في مجرى النسب الأبوي ليتلائم ليس مع مشروعهم السياسي في حصر الإمامة في قريش فقط، لكن ليتلاءم مع توحيد الآلهة الذكوري أيضاً، وهكذا تدعم هرميّة الإله الخالق والخلق، هرميّة الأب البعيد للعائلة والناس، وكلاهما يؤثّث الآخر ويكرّر إنتاجه في اتّحاد ديني / دنيوي، لاهوت / سياسة، نبوّة / خلافة، وعليه فالمفاهيم الأخلاقية وُضعت فقط من أجل تقنين وكبح إمتيازات معيّنة لا تخدم فئةً اجتماعيةً مشخّصة أو نَسَقاً اجتماعياً محدّدا، وهذا لا يعني أنّ الفرد اللاحق مجبرٌ على أن يكرّر إستنساخياً إلى حدّ التطابق سلوك السابق له، لإنّه بذلك يقرّ علناً بفائضيته وبعدم جدواه، وتصبح البيئة الاجتماعية التي تكرّر نفس السلوك الاجتماعي في لحظةٍ تاريخيةٍ مغايرة، أقول يصبح وجود هذه البيئة الاجتماعية ضرباً من السدى، وعالةً على الحياة.

Arab_Books

يبدو أنَّ التراكم المعرفي لم يكن نافعاً في جعل الصرامة الاجتماعية المدبّبة القسوة أكثر ليونة أو أكثر إنسانية. المعرفة الاجتماعية تتقدّم ببطءٍ شديد، أبطأ من سلحفاةٍ هرمةٍ عمياء، فالقتل وبأساليب بدائية لا يزال قائماً كعقابٍ لأيّ كسرٍ أو تشويهٍ لقداسة الجنس في الكثير من بلدان الأرض.

الحياة البشرية تحتاج إلى شيءٍ من المرونة الاجتماعية أكثر، وأعتقد أنّ هذا لا يتمّ إلا بهيمنة التعدّدية الثقافية كمناخ ثقافي حاضن لكلّ وعي خاص ولكلّ اختلاف أيضاً، الشارع بحاجة إلى تمرين طويل في تقبّل الآخر لا كعدو تنبغي إبادته، بل كنافذة أخرى لاحتمالات الحقيقة.

لقد كسر طلاب عام (١٩٦٨) البناء التقليدي للجنس في مخيال الغرب، ويحاول المثليّون الآن إتمام تلك البداية، ويوما ما ـ لا أراه بعيداً ـ سيكون على حرّاس التابوات في العالم القديم أن يجدوا تبريراً إنسانياً لانفتاحهم المتأخّر جداً أمام التدفّق الإنساني الكبير.

Arab_Books

(٣)

الأفراد ليسوا نشازاً بل المجتمع

أن تصل المعرفة البشرية ـ سواء على الصعيد الاجتماعي أو الثقافي ـ إلى القول باللامركزية، فعندها يصبح أيّ إقرارٍ بيقين ما ضرباً من العبث، بل لحظةً خارج حركة التأريخ العام، أو خارج حركة الراهن اليومي.

القول بأنّنا نعيش الآن في سنة (٢٠١٣) يتطلّب إدراك عمق التراكم الخبراتي للرقم على الصعيد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي تأريخياً، وبما أنّ وسائل الإتّصال فتحت مسامات العالم على بعضه حتى تحوّل ليس إلى قرية صغيرة، بل إلى أضيق من غرفة ضيّقة، تحوّل إلى شاشة كمبيوتر نهاجر بها داخل المكان والزمان، لم يعد طيّ المسافة حلماً، بل أصبح واقعاً معاشاً، ولم تعد القارّات بعيدة عن بعضها البعض، فقد أصبح الفرد والمجتمع قادرين على الاقتراب ممّا تحقّقه المعرفة البشرية ككلّ، وإستثماره في بناء وتأثيث العالم الشخصي أو الجماعي سواء على صعيد الواقع أو الذهن.

ينبغي التعامل بحسٍّ إنساني مع المعرفة، إخراجها من المكتبيّة

Arab_Books

الرثّة، إلى الممارسة والتطبيق، ينبغي أن يكون الذهاب إلى المعرفة كالذهاب إلى المقهى أو كالذهاب إلى الجامع، أي أن نكون واضحين تماماً، لا أن نعيش حياتنا كعادة سرّيّة.

[المُنفَتِح] هو أوّل الإتّجاه القادم، أوّل الواقع الإفتراضي/ الطبيعي، الذي لم يولد بعد، لكنّه كائنٌ في الأرحام، تتقاذفه الظلمات، يرتطم بهذا وذاك، يخطّ لذاته مجرى في أحشاء الأرض والكون، وقبل أن يبدأ صراعه الخارجي لا بدّ له من بلوغ السلام الداخلي، الإطمئنان لرؤيته تحديداً ـ المُنْفَتِح أكثر الكائنات إصغاءً لحواراته الداخلية، بل الأكثر إتقاناً لفنّ الإصغاء للذات ـ وحالما يُنهي حروب حواراته الداخلية، تبدأ مرحلة أخرى، لا يمكن التكهّن بها سلفا، لكنّها تتفرّع إلى:

١ ـ الإكتفاء بتغيير الذات.

٢ ـ الانتشار.

وفي الحالة لثانية يجعل [المُنفَتِح] ذاته مسؤولة عن التغيير الخارجي، وهذا فخّ مزدوج علينا أن نكون حذرين عند الاقتراب منه.

لكن، ثمّة ما يقف عائقاً أمام الخطى، في البدء كان اقتراب البيوت من بعضها البعض، ثمّ القرى، فالمدن، فالدوّل، حتى دخلت الكرة الأرضية كلّ بيت، أصبح ظهور الذات أسرع وأكثر عصيانا في ذات الآن، كما لو أنّ الحضارة تتقدّم في إذابة أحجار الوقت، تعجيل السيلان إلى درجة أن يفقد الفرد قدرته على التأمّل،

Arab_Books

تشويش الذهن أمام انفتاح الكشوفات العلمية والتقنيّة إزاء جبروت الجهل وضيق السياسات أو قصدية قصورها في استيعاب حركة التاريخ، ثمّة تنافس على الوراء دائماً، تصعيد خفي وعلني للتابوات القديمة تحت أقنعة أخرى يبدو الخارج عليها نشازاً، وكما قلت ثمّة أثر طوطمي حتى في دساتير أرقى الشعوب تحضّراً، هذا الأثر يحاول جرّ الإنسان إلى القاع دائماً، الإصرار على إبقائه داخل القيد لكن تحت قراءات مختلفة، غير أنّ الإنسان يظلّ حتى اللحظة الأخيرة ـ تماما كاللغة ـ يراوغ، ويحتال على الفقدانات ببدائل أخرى، ذاك أنّ الحضارة تساهم في تصعيد قابلية الإعتراض والإحتجاج، فالتعجيل السريع للانفتاح التقني وهب الفرد قدرة مضافة على كسر الحدود، وخلق تشبيكات اجتماعية كوكبية، تمتلك القدرة في أحايين كثيرة على فرض حضورها، وإيقاف أيّ تعطيل أو كبح لفئة ما على الأرض.

رغم أنّ تقدّم المعرفة يجعل الحياة كحياة مكلفة جدا، يجعل الإحتياجات تتعالى تعدّداً وقيمة، يتّسع مفهوم الفقر، يتعالى مفهوم الأميّة (لم تعد القراءة والكتابة إلا مستوىً واحداً فقط من مستويات الأميّة بعد أن دخل الكمبيوتر والأنترنيت ضمن تفاصيل الحياة اليومية للكائن البشري، لا أتحدّث هنا عن أميّة الحواس، الداء الأكثر انتشاراً على الأرض)، لكن، أن يكون [المُنفَتِح] قريبا من قلب الحضارة النابض فإنّ ذلك سيهبه الإمكانية على الإلتفاف على ما يقف عائقاً أمامه، بل أنّ الفرد الآن يمكن وبواسطة كلّ التقنيات

Arab_Books

الحاضرة أن يكون عالمياً، وأن يجعل ذائقته ورؤيته أكثر اتّساعا، يمنحها سلطة الانتشار أيضاً.

يمكن اتّخاذ تجربة المعمارية [زها حديد] إنموذجاً في كسر الروتين المعماري العالمي، فما فعله [آنشتاين] مع الضوء فعلته [زها] مع المعمار، إستبدال المستقيم بالمنحني، إدخال الموجة في بنية المكان، تجسيد حركة الثبات، وإنبعاث مريدين ـ على الأرض في الوقت ذاته ـ يسارعون في عملية انتشار الذائقة.

العالم القديم يتهاوى، والمصرّون عليه يغرقون تباعا.

أرى جثثاً تطفو على الماء، وأرى الماء يجري.

«الأسماك وحدها

تحتفي

بالغرقى»

Arab_Books

(٤)
الطمأنينة فخ النائمين

ينبغي الإنتباه هنا إلى أنّ الذائقة لا تحتاج إلى صوتٍ فحسب، بل إلى صدىً أيضاً، بل إنّ الصدى يجعلها تمتلئ، وترتفع من فرديّة ضيّقة إلى إنسانية جارفة، ومع هذا، لا جديد من غير ذات منفتحة، طامحة، متحرّكة، تقفز على لحظتها، لتمسك ما تستطيع من عناقيد ناضجة، لم تنبت بعدُ على العرائش إلا داخل منظارها.

ربّما تولد الذائقة الفردية لدى ذات في قاع الهرم الاجتماعي ـ سقراط أو غاندي إنموذجا ـ حتى أنّها تحتل فاعلية ذاتها، لكنّها تظلّ ضمن مدار الذات إلى أن تمتلك سلطة الخروج كذائقة جماعية، وهنا يكون (التأثير) مفتاحاً للانتشار، أو أن يأتي التغيير من ذات تولد أصلا في قمّة الهرم الاجتماعي، وتملتك خصوصيّتها المنفتحة، كما في تجربة [إخناتون] مثلاً، وبالتأكيد سيكون (الفرض) هنا مفتاحاً للانتشار.

لكن أيضاً، قد تكون القوّة إحتياجاً اجتماعياً شديداً يدفع المعوزين إلى الخروج، وهنا يمكن سرد كلّ الثورات الشعبية في العالم، وبالتأكيد فإنّ ما حدث في الربيع العربي يمكن أن يكون

Arab_Books

نموذجاً صارخاً كسر الرؤية الثابتة التي تقول بأنّ الناس مجبولون على الخوف تحت تأثير مفاهيم جعلت الرجم أو الإعدام عقاباً لكلّ من فكّر، أو نوى الخروج عليها.

أثبت الربيع العربي أنّ الخروج المتكافل يمكن أن يغيّر شكل الخارطة القيمية، ولا بأس أن تكون هناك عقبات، وربّما إنزياحات جانبية قد تسرق الربيع أو تؤجل قطف ثماره، لكنّه يظلّ تجربة حياتية هائلة، أستطيع أن أتحسّس الانفتاح الذي خلقه، حتى ولو أنّ الكثير من الشارع العربي قد إصطف إلى جانب الماضي السلفي، لإنّ امتلاك السلطة من قبل السلفيين سرعان ما سيكشف عقم طروحاتهم إزاء المشاكل الاجتماعية الراهنة، فإن لم ينفتحوا على الآخر فإنّهم سرعان ما سينهارون تباعاً كأحجار الدومينو، فإذا أصرّوا على البقاء فليس أمامهم إلا استخدام العنف، أي ممارسة نفس أسلوب الأنظمة القمعية التي خرجوا عليها، وهذا بحدّ ذاته يحمل بذرة سقوطها.

الإحساس بالظلم، بالغبن، أو بالسرقة يُصَعّد الرغبة في إعادة فهم الحياة والسعي نحو إعادة صياغتها أيضاً.

إنّها الكأس مرّة أخرى، مملوءة للنصف، والذي يرى المستقبل متجاوزاً الحاضر، فبالتأكيد يساهم في عملية التغيير حتى اللحظة القصوى، أما إن كان الماضي جاثماً كحاضرٍ على حواسه كلّها، فالطمأنينة فخّ النائمين.

Arab_Books

(٥)

الثورة القصوى للمرأة

ولأنّ الأديان التوحيدية نتاج مرحلة تاريخية ذكورية فإنّها ـ متفضّلة ـ فتحت للمرأة نصف النافذة، لكن، مع التراكم المعرفي والخبراتي البشري المستمر، إزاء ثبات المفاهيم والشرائع الذكورية كما هي دون أن تنتبه للتغيّرات الاجتماعية العالمية، أقول أصبح نصف النافذة (إخصاءً) قبل أن يكون إقصاء، أصبحت المرأة (مخصيّة) وأنا هنا أستثمر مصطلح الناشطة النسوية الأسترالية (جيرمان غرير)، لأنّ (نصف النافذة) الذي كان متنفّساً للمرأة أصبح عائقاً وشللاً جعل ويجعل المرأة تقف أو تمشي دائماً وراء الرجل بخطوات تتباعد، وبفجوة تتّسع مع الوقت.

إنّ انتشار الفكر الديني الآن سيقوم على تأكيد وبإصرار شديد (نصف النافذة) كشرع إلهي، مع إضافة شروط تعتيمية جديدة ولّدتها حدّة الفوبيا التي أصيب بها الرجل (ذو العقل الديني) تحديداً أمام تحرّر المرأة ومساواتها للرجل وصعودها إلى رتبة الكائن الإنساني في التجربة الغربية.

إنتشار (الفكر / العقل) الديني سيقود إلى خنق المرأة قبل

Arab_Books

الرجل، أي أنّها ستكون المتضرّر الأكبر، لذا يمكن بسهولة توقّع اللحظة القادمة عاجلاً أم آجلاً بأنّها لحظة الثورة القصوى للمرأة، ذاك أنّ الضغط الاجتماعي المتراكم لا يقود إلى تنحّي المرأة واختفائها، تراكم الضغط الاجتماعي سيقود إلى انفجار هائل، عندها، وبإرادة النساء فقط، ستتغيّر الخارطة القيميّة مرّة أخرى، سيعاد قراءة المفاهيم الاجتماعية ثانية، لكن بعيداً عن أيّ حسٍّ رجعي، ثورة المرأة وحدها ستكون الضربة القاصمة لظهر ثقافة ذكورية لم تعد قادرة على إستيعاب اللحظة البشرية الراهنة، بل يمكنني أن أرى ثورة المرأة الخطوة الأولى لتحرّر الرجل نهائياً من ترسّبات الأفكار البائدة، لذا فإنّ ثورة المرأة لن تكون بمعزل عن مساهمة الرجل، ذاك أنّ الحريّة لا تكتمل إلا بأن يتحرّر الإثنان معاً إلى رتبة الكائن الإنساني، التحليق فوق التقسيم الجنسي البليد (الرجل / المرأة) الذي بُنيت عليه القيم الأخلاقية اللا إنسانية، المرأة ليست «ناقصة عقل» كما تؤكّد ذلك القراءة المتخلّفة للعقل الديني، وليست «واهية العقل» على حدّ تعبير قراءة (إبن سينا) المتخلّفة أيضاً، أقول: في حالة هيمنة العقل الديني اجتماعياً فإنّ الفلسفة المنضوية ستكون واهية العقل حتماً.

المرأة كائن إنساني يمكنه أن يتفوّق على الكثير من الرجال في حال انفتاح النافذة أمام خطواتها، وقد كان ابن حزم جريئا وحقيقيّاً حين قال بأنّ امرأة واحدة قد تفوق بعقلها عقل ألف رجل، ينبغي الإنتباه إلى أنّ ضعف المرأة في العالم الإسلامي مثلاً ناتج عن هيمنة

Arab_Books

وتراكم النظام الذكوري القامع لوجودها في الحياة، لذا فحضورها المتوهّج سيكون عبر كسر هذا النظام المدعوم دينياً وعرفياً.

لقد انتحرت مدام بوفاري وانتحرت آنا كارنينا، وتنتحر النساء على الأرض في الأماكن التي لا تزال موبوءة بحضيض الفكر البشري، وأعتقد جازماً وأرى بصفاءٍ تامٍّ أنّ ثورة المرأة القادمة ستجعل الرجل أمام خيارين لا غير: إمّا القبول بالثورة والتحرّر، أو الإنتحار، ستنقلب المعادلة تماماً، حرية المرأة وحدها قادرة على تحرير الرجل من عبوديته.

Arab_Books

(٦)

رغبة الجمع بالتفرّد

لقد أراد المتنبّي أن يساهم في عملية التغيير، بل ساهم حقّا، بالقول الذي يكسر القول، في أمّةٍ قائمةٍ على القول ولا تزال، دخل في دور المحرّض، كان الأَرَضَة التي تنخر القول، خاض في القول الذي يعلق، في [قول الذات]، الذات التي ترى نفسها قطباً للأشياء، منها ينبع الماء، وإليها تعود الأنهار.

الحياة والمعرفة البشرية الآن من السعة بحيث أنّ مساهمة المُنْفَتِح قد لا تتعدى جانباً واحداً، وربّما أقل كثيراً من ذلك، لكنّه يبقى في النهاية «محاولة في تعديل انحرافٍ قديمٍ للروح» على حدّ تجربة [سليمان جوني].

أقول، رسوخ المتنبّي في الذاكرة الجمعية دليل رغبة الجمع في التفرّد، كانت الناس تردّد أقواله، لا لأنّه قالها، بل لأنّهم كانوا يحاولون قول القول من خلالها أيضاً، وأعتقد أنّ بعض ما أكتبه الآن يندرج ضمن هذا السياق.

Arab_Books

(٧)
المبادرة بالمستطاع

لقد جاء قبل الأوان، وكان جريئاً حتى في إنكساراته، قال كلّ ما أراد قوله، لكنّه أراد أكثر من القول، من هنا إنبثق أعداؤه، أيقن أنّ للقول فاعلية السحر، لكنّه لا يكون فاعلاً بلا قوّة، سلطة القول لم تكن كافيةً لإحداث التغيير، «القصيدة تريد أن تحكي مثل التاريخ، تريد أن تترك عادة الإنشاد» على حدّ تجربة [زاهر الجيزاني]، القصيدة تريد أيضاً ممارسة سلطة انتاج الحقيقة.

لقد تحدّث المتنبّي عن ذاته بلغة عالية جداً، مدبّبة وشرسة، أنتج حقيقة (الذات)، صَعَّدَ من هالة (الأنا) في بيئة قوامها (نحن)، فتحوّل إلى سلطة، لكنّه أراد تفعيل هذه السلطة بامتلاك الأداة/ القوّة من أجل تعميمها، تحويلها إلى حقيقة اجتماعية، جَعلِها سلطة اجتماعية.

لقد بادر المتنبّي في القول، وأراد أن يبادر من موقع آخر، أذكر هنا تجربة [لينين] في كتابه «الدولة والثورة»، فقد بدأ الكتابة قبل إستلام السلطة، لكنّه إستلم السلطة قبل الإتمام، فانقطع عن مواصلة الكتابة قائلا: «لسنا بحاجةٍ إلى تنظيرٍ الآن، نحن بحاجةٍ إلى

Arab_Books

ممارسة»، الفرق ما بين الإثنين، أنّ [لينين] إنبثق في لحظة تاريخية كانت مفروشة الأرضية تماماً لإحداث التغيير، أما المتنبّي فإنّه كان يمشي على أراضٍ بكر، ثمّة من جازف قبله فالتهمته الألغام، أما هو فكان القافز على الألغام، كان مشروعاً للقتل طيلة إنتباهته لذاته، فكان عليه دائماً أن يتّخذ الظلام رفيقا، إلى أن وقع في الكمين. لذا أعتقد أنّ عدم تسّلمه أيّ سلطةٍ أخرى، غير سلطة القول، جعله راسخاً في الذاكرة الجمعية، وأنّه ـ ربّما ـ لو تمّ له ما أراد لتسطّح كمشروع إنسان مثل كثيرين.

أقول، جمالية مشروعه تكمن في أنّ الحقيقة التي أنتجها بقيت فردية، حاول تصعيد خصوصية الفرد على حساب الجماعة، كان محاولة في الخروج على الجماعة بدلالة القطيع، امتلك الوعي ولم يمتلك القوّة كسلطة، لذا بقي المتنبّي احتمالاً قائماً، ممكناً لو أنّ الأنهار إتّجهت إليه.

Arab_Books

الخروج إلى جهنم

«أنا بوّاب الجحيم
ولن أسمح لغير أحبّائي بالدخول
الجحيم لي ولأشباهي
أما سوى ذلك
فإلى الجنّة
وبئس المصير»

العزلة الضيّقة نفق لعزلة تّتسع.

هكذا يوغل المُنفَتِح في إبتعاده، بل يصبح الإبتعاد ـ سواء داخل المجموع أو خارجه ـ حياته، هويّته.

يبلغ الحال على الصعيد الفردي ـ أحياناً ـ أن تتحاشى أن تلتقي بأضدادك، كي لا تمنحهم فرصة أن يبادروك بالتحيّة:

«وأتعب من ناداك من لا تجيبه
وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبّي فيهم غير أنّني
بغيض اليّ الجاهل المتعاقل»

الخروج إلى الذات، يجعل الفرد ملتصقا بـ [نصّ العالم] لا

Arab_Books

بترجمته، النصّ كما تراه وتعيشه الذات، وليس كما ترثه، من هنا يزداد المُنفَتِح إبتعاداً عن القراءات الجاهزة بالتوارث، وتبدأ الفجوة مع الآخر بالإتّساع، حتى يصبح الجسد عائقا أمام خروجات باهظة، بل إنّ الجسد أحياناً يلوي عنق الخروج، يجعلك في مصاف توأمية الشكل، التي ليست في النهاية إلا قراءة متخلّفة لبنية الشكل:

«وإنّي لمن قوم كأنّ نفوسهم

بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما»

يهمّني هنا أن أتّكئ على تجربة (عنترة العبسي)، ففي لحظته التاريخية، وفي مكان إقامته أيضاً (الجزيرة العربية تحديدا)، كان اللون الأسود إقصاءً عن الشرف والرفعة، حتى ولو كان ابن شدّاد (ينبغي أن ننتبه هنا إلى أنّ اللون ذاته في أفريقيا لا يشير إلى تمايز طبقي، التمايز الطبقي هناك يأخذ بعداً اقتصاديّاً بشكل أكثر وضوحا، لذا سيكون هناك أسياد وعبيد داخل نفس اللون). ها نحن في القرن الواحد والعشرين، ولا تزال ترسّبات التمايز اللوني في عقليّة الكثيرين ممن يلامسون تراب وعي اللحظة الراهنة!

حدثتني [لينا إيشو] التي تعمل في مجال رعاية المراهقين اللاجئين في (NSW) أنّها إصطحبت سبعة مراهقين أفارقة إلى دار الأوبرا في سيدني لحضور عرض مسرحي أبورجنيي راقص، قالت: «ما أن دخلنا حتى سرقنا أنظار جميع من في القاعة، هنا بادر أحد المراهقين بالقول: أكره الحضور إلى هكذا أماكن.

قلت: لماذا؟

قال: أنظري إنّهم ينظرون إلينا لأنّنا سود.

Arab_Books

قالت تتمّ كلامها: وبالتأكيد فإنّ المراهقين لا يتقيّدون بالجلوس على الكراسي، وأراد بعضهم الجلوس على الأرض، هنا قلت لهم: إن جلستم على الأرض ستجعلونهم ينظرون إليكم طويلا. قالت: هنا بادرني المراهق الذي كره المكان قائلا: نعم سينظرون إلينا هذه المرّة لا لكوننا سوداً، بل على أنّنا أدنى منهم عقلاً وتحضّراً».

لقد كان هذا المراهق كتلة من المجسّات المنتصبة المتوتّرة لتحسّس الآخر، تحسّس نظرته وإتّجاهها، ليس اللون فقط، بل العقل أيضاً، إنّه تجسيد واقعي للشعور بالوصول المتأخّر.

وتحضرني الآن أيضاً تجربة عائلة (داكنة) البشرة في بغداد في مدينة الثورة في تسعينيات القرن العشرين، تزوّج كلّ أبنائها وهم سود من نساء بيض، لسن سُمراً حتى، وكان الغرض من ذلك إنجاب أطفال ليسوا سودا، إنّها محاولة في الخروج من اللون ولو على صعيد الذريّة (وقد غادرت العراق قبل أن أرى نتاج هذه الزيجات)، رغم أنّ صديقاً آخر داكن البشرة تزوّج من امرأةٍ بيضاء فأنجبت له أبناء سود، إنّه في النهاية صراع جينات مورّثة ليس إلا.

أريد أن أتناول تجربة [عنترة] هنا كرمز لممارسات أكثر سلبية في هذا الإتّجاه، كالمتاجرة بالإنسان، واتّخاذه عبدا، يحدث ذلك حتى الآن مع كلّ حرب، وفي كلّ مجاعة.

روى لي الشاعر (نصير غدير) كيف أنّه اشترى امرأة كردية واعتقها، حدث ذلك بعد حرب الأنفال، بل سمعتُ أيضاً أنّ هناك عدداً من النساء الكرديات تمّ بيعهن في مصر، ولا تزال تجارة الرقيق قائمة في أوربا لكن بطرق سرّية.

Arab_Books

أعود إلى تجربة البشرة الداكنة فأقول: لا يمكن نسيان تجربة نهوض أمريكا على أكتاف الأفارقة، كما أنّ تغيير [مايكل جاكسون] للون بشرته، إتّهام لإنسانية الإنسان في اللحظة الراهنة.

روى لي حلاقٌ عراقي في سيدني حواراً دار بين جدّته وأمّه في بغداد قال: «قالت جدتي: في زماننا لم يكن هناك أناس سود، ولكنّهم بدأوا يخرجون من الماء مثل الركوك (كالسلاحف)، ثمّ يكبرون فيصبحوا رجالاً ونساء»، لا يزال الجنوبيون في العراق يسمّون ذكر السلحفاة (عبيد الماي).

الجدّة هنا تتحدّث عن يقين لا شكّ فيه، فالأسود بحسب قراءتها يأتي من طريق آخر غير طريق بني آدم تماماً كذكر السلحفاة، إنّها تتحدّث عن حقيقة ـ من وجهة نظر الجدة ـ لها ثقل اليقين، ليس وهماً وليس خيالاً، هذه القصّة تكشف لي كيفية إنبثاق صورة الخلق في مخيال البسطاء من الناس، وتجعلني قريباً جداً من فهمهم، قريباً جداً من فهم العقلية التي بها يقرأون الحياة، فلا أشكّ في أنّ الجذر العميق لقراءة الجدّة هنا يشير إلى قدوم الزنج إلى العراق الذي كان عن طريق البحر والخليج، دون أن أنسى أيضاً أنّ قصّة الخلق من الماء لا تبتعد عن جذر سومري قديم، والجدّة ذات أصول جنوبية لا تبتعد كثيراً عن بلاد سومر، أضف إلى ذلك المستوى البسيط لوعي الجدّة، هكذا تلتصق الأسطورة بالواقعة الحياتية، وتحت فعل التقادم يدخل الواقع في الأسطورة إلى حدّ التماهي تماماً، فيبدو كلّ منهما واقعاً وأسطورةً في آن، بهذه الطريقة يتشكّل العقل البسيط، بعيداً عن نطاق البحث والنقد والتحقيق.

أحبّ أن أثير هنا نقطة أيضاً، أنّ الإسلام كتشريع فتح باب عتق

Arab_Books

العبيد كممارسة اجتماعية، ولم يفتح باب تحريم اتّخاذ الإنسان عبدا! وعلمتُ أنّ العبيد (لا يزال اللون الأسود مقترناً بدلالة العبد في الثقافة العراقية، رغم تفريغ دلالتها على صعيد الممارسة الاجتماعية) الذين حرّرهم انقلاب ١٤ تموز في العراق عام ١٩٥٨، لا زالوا مذنبين شرعا، أمام الله، وأمام أسيادهم! هذا من وجهة نظر الشريعة الإسلامية، بالتأكيد أنا أتحدّث عن الذين هجروا أسيادهم دون أن يؤدّوا ما عليهم، أو دون أن يدفعوا ثمن حريّتهم، لأنّ العبد جزء من الملكية الخاصّة للسيد!

إنّ قبيلة [عبس] وهي من جمرات العرب (أي من القبائل التي لا تحتاج إلى تحالفات قبلية من أجل أن تحمي نفسها)، كانت تحتاج إلى فروسية عنترة، من أجل بقائها، لكنّها في نفس الوقت، كانت تعجز أن تمنحه حقّ المساواة. بقيّ لونه الأسود حائلا بينه وبين إبنة عمّه. لم تتوفّر لديه إمكانية [مايكل جاكسون] على تبديل بشرته من أسود إلى أبيض! (رغم أنّ الأخير أيضاً تمّ تقديمه أمام القضاء الأمريكي كرجل أسود حتى بعد أن قام بتغيير لون البشرة).

الإنسلاخ من اللون، من النظرة الدونية، التي سبقت قدومه إلى العالم، يشبه تماما الدخول في حالة الأفعى! لقد أصبح [عنترة] فارس القبيلة، نخر صيت سيفه قلوب الفرسان في الجزيرة العربية، تماماً كما أغوى [مايكل جاكسون] برقصه الآلي، أجساد الشبيبة في العالم. كانت ساحة المعركة بالنسبة لعنترة تعادل في قيمتها صالة المسرح عند مايكل جاكسون، وكم تمنّى لو أنّ الحياة ساحة قتال فقط، إذن لكان هو مركز الأحداث كلّها، كذلك كان مايكل جاكسون يتفجّر طاقة خلاقّة على صالة المسرح، مايكل على

Arab_Books

المسرح شيءٌ آخر تماماً، مركز تطوف حوله عيون الكوكب. لكنّهما معا، بقيا تحت خيمة النظرة الدونية للّون. وبينما ساهمت عمليات التجميل في إنسلاخ [مايكل جاكسون] من لون بشرته الأولى، بقيّ [عنترة] داكن اللون إلى النهاية. المفارقة هنا أنّ [عنترة] جاء قبل الأوان، لكن بعد أن تحدّد كلّ شيء، وهكذا لم يرتق اجتماعياً لمستوى الرجال، الذين كانوا يحتمون بسيفه من غزوات القبائل!

إشكالية [عنترة] الوجودية أورثته الإحساس بالذّل، لذا خرج إلى جهنم:

«لا تسقني كأس الحياة بذلّة
بل فاسقني بالعزّ كأس الحنضل
كأس الحياة بذلّة كجهنّم
وجهنّم بالعزّ أطيب منزل»

مع المتنبّي، الإشكالية تأخذ شكلاً آخر، لكنّها لا تتجاوز إنغلاق العقليّة على مسمّيات تمّ تحديدها من قبل. ليس اللون، بل العقل، نفس ما شعر به أو أدركه المراهق الأفريقي في دار الأوبرا في سيدني، أو ما شعرت به جيرمان غرير إزاء التقسيم العنصري أيضاً إمرأة / رجل، والذي دفعها في النهاية إلى أن تؤلف كتابها (المرأة المخصيّة)، اللون جزء من العقل الذي يشكّل الذائقة. رغم أنّ المتنبّي لم يتحرّر تماما من إشكالية السيّد والعبد، وظلّ اللون مقياسا لديه، لكنّني أعزو ذلك إلى تجربته المريرة مع كافور، ثمّ إنّه في النهاية لم يكن يقيم إعتباراً حقيقيا، لا لأبيض، ولا لأسود، فهو القائل يرثي عبداً أسود:

«وما كلّ وجهٍ أبيضٍ بمباركٍ»

Arab_Books

كانت رغبته تكمن في التحرّر من الآخر، كعقل مهيمن، أغلق كلّ المسامات أمام تحقّق الذات كتفرّد، وقتل دوره كمنقذ مثلاً، من هنا كان شعوره بالذّل. جاء فوجد نفسه مسيّجاً بأفكار تحوّلت إلى سلوكيات مفروضة وفارضة، ليس له أمامها إلا الإنضواء والإنحناء، لذا خرج إلى جهنّمه:

«فاطلب العز في لظىً ودع الذّ
لّ ولو كان في جنان الخلود»

تجربة منفردة ـ متفرّدة ـ في الوجود، تتكرّر دائماً في أشخاص يختلفون في الذائقة، يختلفون في طريقة الإحساس بالعالم، لكنّهم يتشابهون في المصير.

ملاحظة هامّة

كتبت فقرة (الخروج إلى جهنّم) قبل أن يصل باراك أوباما إلى رئاسة الجمهورية عام ٢٠٠٨، لقد كان صعود أوباما شحنة هائلة من الثقة بالنفس، ليس للأفارقة في أمريكا، بل للبيض أيضاً، إنّه النجاة من المطاردة باتّهام الحسّ العنصري، رغم إنّ الأمر لا يعني خلو أمريكا والعالم من هذا الإحساس، غير أن صعود أوباما يمكن أن يكون إنعطافة هائلة سواء في التفكير أو في الممارسة الاجتماعية، الإنتخاب كان ممارسة جماعية، وهذه أوّل نوافذ النجاة. لكن يبقى هناك شيء من الماضي دائماً يختبئ خلف أناقة ربطة العنق وفي ثنايا ابتسامة التكافل والمساواة، ثمّ إنّ الإحساس فردي في النهاية، سواء أكان ذلك الحسّ نابعاً من الأسود ذاته أو من الأبيض، فكلاهما يساهم في تصعيده، وكلاهما أيضاً يساهم في تضييقه وتجاوزه.

Arab_Books

الإقامة خارج الحياة

أ ـ جدل الهويّة والمكان

لعلّ من أعمق ما قرأت في وصف السجن رسالة من سطرين لسجين بلا إسم ذكرها الثعالبي في كتاب (اللطائف والظرائف) قال: وكتب بعض المحبوسين إلى صديق له: «كتبتُ إليك من دارٍ لستُ مالكاً لها، ولا مرتهنا، ولا مكتريا، وليستْ بوقفٍ عليّ، ولستُ فيها ضيفاً، ولا زائراً».

ثمّة دائماً صفة للمكان، هذه الصفة تأتي من هويّة المقيم فيه، لكن، في أحيان محدّدة يُسقط فيها المكان هويّته على المقيم، وهنا تتجلّى إشكالية مَن يُعَرّف مَن؟ المكان أم المقيم؟ وبالتأكيد فإنّ زاوية التعريف ستقرّر في النهاية هويّة كلٍّ منهما، وقد يرتفع جدل الهويّة إلى حدّ أن يساهم كلّ من المكان والمقيم في إنتاج إرهاصاتها، وكعيّنة على ذلك ما نراه من إرتباط هويّة الكردي بالجبل سواء في ذهنية العربي أو في ذهنية الكردي.

الجبل توأم الكردي، بل هو المكان الذي عليه وبه يتحقّق، من هنا نقرأ محاولة المؤسّسة الرسمية في العراق ولأكثر من جيلين (١٩٢١ ـ ١٩٩١) في تكريس مفهوم (العصاة) باعتبارهم الخارجين

Arab_Books

على طاعة القانون، المقيمين على الجبل، الذين يعيشون بالقرب من أعشاش النسور، يشرفون على الوديان والسفوح، على أكتافهم بنادق البرنو، يقتنصون بها ممثّلي النظام الحاكم، وبالتأكيد فإنّهم لم يكونوا دائماً دقيقين في انتخاب الضحية، أذكر أنّني كنت طفلاً في الثامنة أو في التاسعة من العمر عندما جاءوا بأحد الجنود القتلى إلى قرية الزهيرات، كان الجندي مكّلفاً بإداء خدمته العسكرية في قواطع الشمال، وكانت المرّة الأولى التي أسمع فيها أو أنتبه إلى كلمة عصاة الجبل، وكالعادة فالناس تصطف إلى جانب القتيل ضدّ القاتل، لذا تمّ تكريس الضدّية في ذاكرة الطفل تجاه الخارج على الطاعة، المختبئ في الأعالي.

إرتبط مفهوم العصاة بالكردي وبالجبل، أصبح العصيان هويّة الكردي، وأصبح الجبل رمزاً لهذه الهويّة، كما لو أنّ الأرض المستويّة لا تنتج معترضين أو عصاة؟! ومع هذا كانت الأهوار الملجأ الأكثر أماناً للذين رفضوا المشاركة في الحرب ضدّ إيران في منتصف الثمانينات، كثافة القصب كانت المعادل الموضوعي لوعورة الوصول إلى القمم.

ثمّة دائماً ما يعيق الوصول اليك، يجعلك تماماً خارج مدى مطرقة السلطة، هكذا، يكون الضيق الأشد هو الانفتاح الأقصى.

تكريس صورة العصاة في الذهنية ساهم كثيراً في تأثيث هويّة الكردي كآخر مختلف، فالكردي هناك، وهناك فقط حيث يقيم على القمّة يتحرّر تماماً من كلّ تبعية، ويتحرّر من سلطة كلّ قانون سوى قانونه الذاتي، هكذا، على الجبل يكتمل إصغاء الكردي لذاته،

Arab_Books

يتحقّق كهويّة وكانفصال. من هنا كان الجبل هواء الكردي، بل حريّته على حدّ تجربة (شيركو بيكه س).

لقد تغيّر الأمر الآن، وأصبح بإمكان الكردي أن يكون آمناً على السفح وفي الوادي. تدريجياً يرتدي الكردي هويّة أخرى يمكن تحسّس ذلك في ذهنيته الجديدة أو في ذهنية العربي الجديد أيضاً.

ب ـ الانفتاح على الكون

من أجل توسيع دائرة الخطاب، يصعد السؤال، هل يفرض الإنسان هويّته على كوكب الأرض أم أنّنا أرضيّون؟ هل خرج الإنسان من ضيق الأرض؟ هل فتح له نافذة أخرى داخل الكون؟

بالتأكيد أنا أشير هنا إلى رغبة (كارل ساغان) في إرسال نداء بشري إلى الأعماق البعيدة خارج المجموعة الشمسية بحثاً عن شركاء لنا في الكون.

تحقّقت هذه الرغبة حقاً بإرسال أمواج راديوية لها سرعة الضوء تتقدّم عمقاً إلى قلب مجرّة درب التبانة أو الطريق اللبني منذ عام ١٩٧٤، إضافة إلى رسالة مشفّرة على صفيحة ذهبية حملتها كلّ من فويجر واحد وفويجر إثنان، وهما الآن يحلّقان خارج نطاق المجموعة الشمسيّة.

وحتى تكتمل الإشارة ألوي عنقها باتّجاه تحذير ستيفن هاوكنغ من مواصلة هذا النداء خوفاً من أن يفتح الإنسان نافذة لغزو الأرض من قبل كائنات أكثر تفوّقاً! كما لو أنّ الناس على الأرض غير مُهَيَئين الآن تماماً لإقامة حوار كوني، إنّها إشكالية النجاة من التفاهة

Arab_Books

العظمى أو السقوط في هاوية أكثر ضيقا، أن تكون أقصى قدراتنا على الخلق هي الفخّ الذي لا نجاة لنا منه، أنّنا مكبّلون بأقصى قدرتنا على الخلق، هكذا:

«الطائر مكبّل بجناحيه

السمكة بقدرتها على تنفّس الهواء المذاب

وأنا

بأقصى قدرتي

على التخيّل»

ما يثيرني من كلّ ذلك هو هذا الشعور العميق بالوحدة، ومحاولة شقّ غشاء المشيمة الذي يغلّف العالم البشري على الأرض، محاولة الخروج من الإحساس بالأرضية، والإنتباه إلى أنّنا كونيّون، كونيّون منشغلون بقصّ أجنحتنا! منشغلون بتفاهات صغيرة تحجّم وجودنا في الحياة وفي الكون؟!

ج ـ تماهي السجن والرحم

أهبط ثانية إلى العالم الأرضي! أهبط من الإختناق العالي جداً لقلّةٍ على الأرض، أعود ثانية إلى المكان الذي يُسقط هويّته على المقيم، وفي أعلى تجلٍّ لذلك تصعد تجربة السجن حيث يفرض المكان ثقله على المقيم، لأنّ الفرد فيه يتجرّد من كلّ هويّاته.

لا أدري لماذا يحاصرني الآن «نشيد نزول إنانا إلى العالم السفلي» وعمليّات تجريدها المتسلسلة من السلطة والحياة، ربّما لأنّ

Arab_Books

تجربة السجين تتشابه تماماً، خصوصاً حين يتمّ سحب كلّ ما لديه والإحتفاظ به بعيداً عنه إلى لحظة الخروج. السجين بلا خصوصية، وفقدان الخصوصية هو فقدان الهويّة إلى أن يخرج من المكان، ولعلّ تجربة سجن (عباس محمود العقاد) أن تكون نافذة لقراءة مجاورة، لقد تمّ حبسه تسعة أشهر لأنّه تجرّأ على أكبر رأس في السلطة يومذاك، تجرّأ على الملك، لا يهمّني سبب زجّه في السجن، لكن كيفية قراءة الإقامة في السجن من قبل العقاد ذاته، لقد إعتبر زمن الإقامة في السجن معادلاً في القيمة لإقامة أخرى في الرحم، وبالتالي فإنّ عملية إطلاق سراحه كانت بمثابة ولادة جديدة. هذه التجربة، أن يكون السجن رحما، يجعلني أقف أيضاً أمام تشابه خلو الجنين والسجين من أيّ خصوصيّة / هويّة، فما دام في الرحم فهو جنين، الولادة بداية إمتلاك الخصوصية / الهويّة.

ويبدو لي أنّ وظيفة السجن لا تتعدى أن تتطابق مع وظيفة الرحم، ففي الحالين يبدو الكائن البشري غير مهيّأ للعيش في الخارج بين الآخرين، لذا فالولادة وهي تحقّق اكتمال نمو الجنين تعني أنّه أصبح جاهزا للحياة خارج ظلمات الرحم، كذلك الخروج من السجن يشير أيضاً إلى امكانية أن يعيش الفرد بين الآخرين، لكن في هذا التشبيه جناية كبيرة ونحن نتحدّث عن المنفتح، لأنّ السجن رغم انفتاح دلالاته على الإصلاح الذي يتضمّن التأهيل والإكتمال، لكنّه في الأساس مؤسّسة قمعية، يبدو ذلك جليّاً حين يتمّ سجن دعاة التحرّر والانفتاح، ثمّة حالات وممارسات اجتماعية ينبغي الخروج عليها، لذا يكون السجن فيها قمعاً وليس إصلاحا، تحطيماً وليس تأهيلا.

Arab_Books

لكن قد يعلو الإحساس بتوأميّة الرحم / السجن مع ذوات تمتلك رؤى وطموحات أكثر إتّساعا، وهنا يمكن أن نتحسّس أنَ الإنسان كنوع يحاول منذ قرابة ستين عاماً الخروج من مشيمة العالم الأرضي، أنّ الإنسان الآن في لحظات المخاض القصوى، إمّا أن يولد خارج الأرض أو أن ينقرض عليها، أملي بالنجاة يدفعني إلى تدوين أفكاري كلّها.

د ـ انفتاح دلالة النزول

لكن قد يصعد الشعور بالتجرّد من الهويّة خارج الرحم وخارج السجن أيضاً، وهنا يرتقي السؤال الى: ما هي هويّة المكان الذي نتجرّد فيه من هوياتنا حين لا يكون سجناً أو رحما؟ لعلّ ذلك ما يُصعّد ثانية نشيد «نزول إنانا إلى العالم السفلي»، القبر هو الاحتمال الآخر، ولا بأس أن أتوقّف قليلاً عند جملة إنانا وهي تخاطب بوّاب العالم السفلي أو عالم الأموات: «إفتح إيّها البوّاب، إفتح! وإلا فتحتُ أنا، وأقمت الأموات من قبورهم فيكثر عدد الأحياء!»، الأسطورة تتحدّث عن رغبة الإلهة إنانا / عشتار في الدخول إلى عالم الموتى، ويخلو النصّ من أيّ عملية إكراه في ذلك، ربّما لأنّ النصّ يتحدّث عن إلهة، لكن، ما يحدث في الواقع دائماً أنّ النزول إلى عالم الموتى لا يتمّ إلا قسراً، حتى ولو كان إنتحاراً. الإنتحار شكل من أشكال القسر الجمعي (نساء يحرقن أنفسهن خشية من القتل أو خشية من العار، نموذج آنا كارنينا الذي يتكرّر دائما).

لكن ما أريد التركيز عليه هنا أنّ القسر الواقعي يُحَقّق تماماً ما تمّ تحقّقه برغبة الإلهة إنانا، لقد كان التهديد واضحاً تماماً «إفتح! وإلا

Arab_Books

فتحتُ أنا، وأقمت الأموات من قبورهم»، فالأفراد يُزَجّون في السجون والمقابر من أجل ألا يفتحوا الباب للأموات فيزداد عدد الأحياء، أعتقد أنّ تعديل انحراف الأسطورة سيكون واضحاً حين نضع (القسر) بدلا من (الرغبة) سبباً للنزول، وهنا ستكون القراءة تحريضاً على الخروج وليس إستسلاما كما في الأسطورة.

أمام تهديد إنانا جاء الأمر للبوّاب بأن يفتح الباب، ولأنّ عدد السموات سبعة فإنّ أبواب العالم السفلي كذلك، إنّها توأمية الأعالي والأسافل، لكنّهما التوأم المتضاد، وهنا تتصاعد عملية تجريد إنانا من هويّتها: «عند البوّابة الأولى نزعوا التاج عن رأسها. وحين سألت: لماذا، أجابوها: هذه إرادة ملكة العالم السفلي. وعند البوّابة الثانية نزعوا الأقراط من أذنيها. وعند عتبة البوّابة الثالثة نزعوا العقود من جيدها. وعند عتبة البوّابة الرابعة نزعوا ما على صدرها من قلائد وحلي. وعند الخامسة نزعوا الحزام من وسطها، حزام الرقى والتعاويذ. وعند السادسة نزعوا من معصميها أساور الذهب. وعند السابعة نزعوا كلّ ملابسها فوقفت عارية».

لقد تمّ تجريد إنانا من كلّ صفات السلطة والحياة، وصلت إلى عالم الموتى بلا قدرة، لأنّها وصلت بلا صفة، ومع سقوط الصفة يسقط الإسم، ويتماهى الفرد مع الجمع، إسقاط الصفة محاولة في إعادة الخارج على القطيع رغماً عنه، دسّه بين الحشد الراضخ.

أستطيع القول هنا أنّ أسطورة نزول إينانا كانت تخدم ولا تزال إلى الآن تخدم الأنظمة القامعة لأنّها تؤثّث شارعاً مقموعاً ومستسلماً، لقد تمّ النزول بقناعة تامّة، قناعة التنازل عن الصفة.

Arab_Books

وحين أتحدّث عن (الصفة)، التي هي ساحة قتال بين العقل الفردي والعقل الاجتماعي، وأنّ كلاً منهما يحاول قراءة الآخر من زاوية مختلفة، فإنّ حديثي هنا يفتح نافذة أخرى إلى أنّ الهويّة كصفة يمكن أن تكون تجريدا أيضاً، وهذا أقصى ما يصل إليه فراغ الكائن والمكان معا، عندها نقف وجها لوجه مع منزلق فقاعة تتضخّم وتنتظر شكّة من إبرة أو شوكة، لقد حدث ذلك مرارا، وعقبه انتحارات هائلة ومريعة، لأنّ الإنسان لا يستطيع الإقامة في مكان ما خالٍ من الصفة أو في عالم خالٍ من الصفة، الكثير الهائل من الناس لا يستطيعون العيش بلا صفة، وهم يدافعون عن الصفة التي تحتضنهم حتى ولو كانت وهماً أو خرافةً، طائفةً أو حزباً، أو قبيلة. لكن، وهذا ما لا يمكن السكوت عنه أيضاً هناك أحياناً حسٌّ إنساني في الأفراد يتجاوز حدود إنتماءاتهم، أشهد أنّني رأيت بعضاً من هذه الندرة، كانوا كائنات راقية جداً.

هـ ـ جدال على الحافة

تقفز إلى طاولة التذكّر تجربة [صالح بن عبد القدّوس] الذي قتله المهدي الخليفة العباسي الثالث، وصلبه على الجسر ببغداد بعد أن ألبسه صفة (زنديق)، وكانت الزندقة تهمة تطلق على كلّ مسلم تجرّأ على التفكير خارج يقين المؤسّسة الدينية، تماماً كما كانت تهمة (الهرطقة) تطلق على كلّ مفكر ذي خلفية مسيحية في العصور الوسطى، والزندقة فيها إحالة مباشرة إلى عقيدة مزدك وإلى إباحة الاشتراك بالأموال وبالنساء، أي أنّها تمثّل في جوهرها تهديداً لنقاوة الدم الملكي، وبالتالي فهي تهديد للبناء الهرمي للسلطة.

Arab_Books

ورد في الأخبار أنّ الخليفة المهدي حينما أراد قتل صالح بن عبد القدّوس «دفع إليه بكتاب وقال: إقرأ هذا

قال صالح: وما هو؟

قال: كتاب الزندقة.

قال صالح: أو تعرفه أنت يا أمير المؤمنين إذا قرأته؟

قال: لا.

قال: أفتقتلني على ما لا تعرف!

قال: فإنّي أعرفه.

قال صالح: فقد عرفته ولستَ بزنديق، وكذلك أقرؤه ولستُ بزنديق».

هذا الجدل بحدّ ذاته كان سبباً في قتل صالح بن عبد القدّوس، لأنّه كشف عن عقلية غير قابلة للإنضواء، ولا يهمّها أن تنطق الحقيقة حتى ولو كان المحقّق معها يمثّل أكبر سلطة ويمتلك السيف والنطع. جرأة الجدل وقدرته على تعرية الخليفة وتصغيره إلى حجمه الطبيعي بعيداً عن هالة الخلافة والصولجان كان الدافع الأساس في عملية القتل ليس إلا.

عدم الرضوخ ليس إرباكاً لسلطة الخليفة وحسب، بل كَشْفاً أيضاً لمدى انغلاق السلطة على نفسها.

لقد جرّد صالح بن عبد القدّوس بمنطقه العالي الخليفة المهدي من صفة الخلافة، جعله عارياً تماماً، الحادثة هنا هي مقلوب نزول إنانا إلى العالم السفلي، فالبوّاب / الخليفة هو الذي تعرّى أمام الحقيقة، الجدال هنا كان بمثابة آلية النزول، ولأنّ صالحاً أوقف

Arab_Books

المهدي أمام عريه وجهاً لوجه، تشبّث المهدي بسلطة الخلافة لا بسلطة المنطق، لقد إنهزم الخليفة منطقياً، لذا لجأ إلى ممارسة جوهر السلطة كفرض وعنف ليس إلا، إستعان أو تدثّر بسلطة الخلافة بعد أن تعرّى أمام العقل، وبدلاً من أن يتوقّف المهدي إسوة بإنانا دفع بصالح بن عبد القدّوس إلى السيّاف، بل إنّ إحدى الروايات تقول أنّ السيف أخذ صالحاً دون أن ينتبه له أو دون أن يتهيأ له، وهذه تكشف حالة الضعف التي بلغها المهدي، هكذا تقف السلطة عارية تماماً إزاء العقل المنفتح، بل يمكن القول بسهولة أنّ الانفتاح يسحب البساط من تحت أقدامها، هكذا، يجلس (الخليفة/ الإمام) في الخطوط الخلفية إن لم يكن في الخطّ الأخير تماماً.

الأخبار الضئيلة حول الحادثة تقول أنّ صالح بن عبد القدّوس وُضِع في السجن، لم يتم تحديد فترة الإقامة من قبل الرواة، وبما أنّ الحوار كان خاتمة صالح فهذا يعني أنّ الحبس كان قبل ذلك، وما يهمّني هنا هو قوله في السجن:

خرجنا من الدّنيا ونحن من أهلها
فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا دخل السّجّان يوما لحاجةٍ
عجبنا وقلنا جاء هذا من الدّنيا
ونفرح بالرؤيا فجلّ حديثنا
إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإن حَسُنَتْ لم تأتِ عجلى وأبطأت
وإن قَبُحَت لم تحتبس وأتت عجلى

Arab_Books

طـوى دونَـنـا الأخـبـار سـجـنٌ مـمـنّـعٌ
لـه حـارس تـهـدا الـعـيـون ولا يـهـدا
قُـبِـرْنـا ولـم نُـدْفَـن فـنـحـن بـمـعـزل
من الناس لا نُخْشى، فنُغْشى ولا نَغْشى
ألا أحـــدٌ يـــأوي لأهـــل مـــحـــلّـــةٍ
مقيمين في الدّنيا وقد فارقوا الدّنيا

ما شعر به صالح بن عبد القدّوس أنّ الإقامة خارج الفاعلية هي إقامة خارج الحياة، يعلو هذا الحسّ عندما تكون الذات منهمّة بالتغيير الخارجي، وما أقلق ابن عبد القدّوس هو انحسار دائرة الحوار في قضايا لا تشكّل قيمة عند الجدلي، هكذا، يجد المنفتح نفسه في ضيق لا نجاة منه، فإن لم يتدارك نفسه بأن يُصغي حتى لما ليس له قيمة فإنّ ذلك سيقود إلى كآبة حادّة قد تشلّ حتى القدرة على التفكير السوي.

أريد أن أقول هنا أنّ تجربة صالح بن عبد القدّوس هي التعديل الإجرائي لانحراف أسطورة نزول إينانا إلى العالم السفلي.

و ـ السجن الإنفرادي وجهة الحوار الداخلي

لعلّ تجربة السجن الإنفرادي أن تكون أعلى وضوح لفقدان الفاعلية، حيث توضع في غرفةٍ مظلمةٍ متراً في مترين ـ أو أقلّ من ذلك ـ لشهورٍ أو لسنين كما حدث مع الماركيز دي ساد أو مانديلا، حتى يضيع لديك الإحساس بالوقت والمكان، فلا تدري أين أنت؟ أو في أيّ زمن تقيم؟ وحتى يصبح لكلّ عضو من الجسد حواراً

Arab_Books

خاصاً، تافهاً وعميقاً في آن، فقد يحدث أن تقضي ساعات في تأمّل شعرة أو قملة، ومن أنت؟ وما الشعرة أو القملة؟

لقد تجوّلتُ في أروقة السجن القديم في مدينة ملبورن في ولاية فكتوريا، كانت تحوي على أكثر من ثلاثين سجناً انفراديا، لا تتجاوز مساحة السجن الانفرادي الواحد المتر والنصف، وقد أتيح لي أن أدخل الزنزانة التي كانت مخصّصة للمتمرّد الايرلندي الأصل (نيد كيلي) الذي تمّ إعدامه عام ١٨٨٠ باعتباره خارجاً على القانون من وجهة نظر الحكومة الاسترالية، لكنّه بقي بطلا شعبياً من وجهة نظر الشارع الفقير.

وبالتأكيد فإنّ الأمر مختلف جداً بين أن تدخل السجن زائراً ومكتشفاً تتنفس فيه رائحة التاريخ، وبين أن تدخله محكوماً لا تخرج منه الا إلى المشنقة.

حدّثني (محسن بني سعيد) عن تجربته في السجن الإنفرادي التي لم تتجاوز الأحد عشر يوما قال: «لم يكن هناك أيّ إتّصال بالعالم الخارجي، إلا أنّ بعوضة واحدة إخترقت عزلتي، نفذت إليّ من كوّة ضيّقة عالية، كانت زائري الوحيد، لقد إحتفيت بها، فقد أعادت لي صلتي بالعالم».

لقد أنتجت تجربة ماركيز دي ساد مع السجن الإنفرادي العديد من نصوصه المذهلة، كانت خلوته القصوى صعوداً إلى أعلى قمّة والإشراف من هناك على الأفكار الضيّقة التي تسيّج الناس وتصيبها بالعمى إزاء الحقيقة، ففي حوارية المحتضر مع الكاهن، ضحك دي ساد كثيراً من إله الكاهن الذي يملأ الفراغ عندما يتوّقف العقل،

Arab_Books

وكيف أنّ انفتاح العقل يضيّق الخناق على الإله، بل إنّ نمو وتطور قوانين الفيزياء ستركل الإله خارج العالم تماماً، ستحيله على التقاعد، هكذا، كلّما اتّسعت مساحة العقل عجّلَ ذلك في تقاعد الإله.

ز ـ قراءة في تجربة مانديلا

وكما قلت فإنّ فقدان الفاعلية تجربة تشارك فيها الكثيرون، لكن، حين نقترب من تجربة (نيلسون مانديلا) نرى أنّ الإحساس بفقدان الفاعلية تحقّق داخل السجن، غير أنّ إسم مانديلا كان يتضخّم في الخارج مع الوقت، تحوّل إسم مانديلا إلى رمز للخلاص، إلتصق إسمه بالحريّة وبالتحرّر، لذا كان الإسم أكثر حضوراً في الإحتجاجات الشعبية، كان تضخّم الإسم على صعيد التأثير الاجتماعي بين الشعب الجنوب أفريقي يخرج حتى على سيطرة الحكومات، لذا أصبح في النهاية من العسير إدارة حكم الجماهير المنتفضة دون الإستعانة بالرجل الفاقد الفاعلية تماماً والذي يحكم الشارع الشعبي في ذات الوقت، وهكذا، كانت الضدّية داخل التجربة ذاتها قراءة جديدة ومغايرة، فالسجن الذي يُخرج السجين من الحياة تظل الحياة تبحث عنه، بل تسعى إليه ليكون نافذتها.

ح ـ سجون بلا جدران أو فقدان الجدوى

بعض الأفراد يصلون إلى الإحساس بفقدان الجدوى وهم طلقاء يتجوّلون بين الناس في سعة الفضاء كلّه:

Arab_Books

«في عزلتي النائية جدا

سأهتف

كان في سجني الإنفرادي

سبعة مليارات إنسان

وكانوا ينافسونني على الهواء

حتى أنّهم لم يتركوا لي متّسعاً

للشعور

بالخلوة»

وبالتأكيد فإنّ أقسى السجون تلك التي تكون بلا جدران، تحاصرك تقاليد وعادات كممارسات اجتماعية سبقت وجودك، وأقامت كلاوعي يحرّك حياة الناس، فإذا ما انتبهتَ لها جعلتك في ضيق أشدّ من ضيق السجن الإنفرادي، بل هو جذره، أن تتحرّك خارج المسموح والجائز، هكذا وحيداً منفرداً خارج الحياة، يهيمن عليك إحساسٌ شبيه بالذي مرّ به صالح بن عبد القدّوس، أو دي ساد أو مانديلا.

لم يعد كافيا عند المتنبّي، أن يملأ الدنيا ويشغل الناس، ثمّة شيء ـ في الوجود ـ تسرّب منه إلى النهاية، لقد فقد [الجدوى] في تجربة السجن وما ورائها، أصبح في [عدم] يحيا، الإقامة في (لا صلة) مع العالم، هنا أصبح الموت مستحيلاً، وهذا أقصى ما تبلغه الأشياء والعالم من الثقل.

Arab_Books

«كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا»

إنّه يحيا مع [لا أحد]، في هوّة أكثر غورا من هوّة [المعرّي] الذي صاحَبَ الله:

«من لي بأنّي وحيد لا يصاحبني

حيٌّ سوى الله لا جنٌّ ولا إنس»

المتنبّي بلا ـ حتى ـ الله.

إنّها عزلة الكائن التي تنبثق لحظة الشعور بالخذلان، يبدو العالم ـ فيها ـ ميتا [كما هو عند المعرّي]، أو تافهاً غبيّا، والناس محض بعران، أو غنم، أو قرود كالحال عند المتنبّي.

ط ـ الإصغاء للوحي الداخلي

الحياة عند المتنبّي تشبه إلى حدٍّ ما إمبراطور (رامبو)، إنّها «حكّة مزمنة»، جربٌ يدعو إلى النفور والتقزّز:

«وما موت بأبغض من حياة

أرى لهم معي فيها نصيبا»

أتذكّر هنا رغبة [ستندال]، بأن يصاحب عرق جسده عطر يقتل الذباب، والبعوض، والقمل، من على بعد ستة أمتار! غربة [المُنفَتِح] تجعله مرئيا كناطحة سحاب، إنّها تماماً، مقلوب علاقة [موباسان] ببرج [إيفل] التي تحدّث عنها (بارت).

Arab_Books

لقد كان البرج مرئيا من كلّ مكان في باريس، ولم يتمكّن [موباسان] من التخلّص من رؤيته إلا بالدخول إلى المطعم الذي فيه.

الذي حصل مع المتنبّي إنّه تحوّل إلى برج، المُنْفَتِح مرئي، بل هو الأكثر قدرة على سرقة عين الكاميرا، يراه القاصي والداني، وهو من ـ هناك ـ من أعلى قمّة للبرج، لا يسمع كلماتٍ، بل يسمع أصواتاً.

شيء من الصمم يتسلّق الأذن، أرى أن تحقّق الذات يبقى ضرباً من فقدان حاسّة السمع، لكنّه ينأى عن القراءة الظاهرية للفقدان، ويوغل في تأمّل البعد الرمزي الكامن، الفقدان هنا هو الإصغاء بعمق للوحي الداخلي، يمكنني قراءة تجربة [بيتهوفن] بوضوح، لكن، خارج أفقها المحدود، لقد تسرّب المعنى من الكلمات، ولم تعد الأصوات تشير إلى اتّجاه، هذا ما صرّح به بيهوفن في رسالة إلى أحد أصدقائه، وقد نما هذا الإبتعاد إلى درجة أن توقّفت أذن بيتهوفن عن سماع أصوات الناس، تصفيقهم، لكنّها، وهذا ما أريد التركيز عليه، لم تتوقّف عن سماع الموسيقى، كانت الموسيقى بالنسبة لبيتهوفن حواره الذاتي العميق جداً، وحيداً كان يصغي بعمق لشلالات جدله الداخلي الصاخب، إنّها مقلوب تجربة آتنابشتم مع البعد، في ملحمة كلكامش تمثّل البعد بالمسافة المكانية الفاصلة بينه وبين الناس، لقد أصرّ كاتب الملحمة على أنّ الفاصل مكانيّاً، ربّما كان ذلك لتجسيد التباين بينه وبين الآخرين، لقد احتاج كلكامش أن يقطع مسافات طويلة من الظلام والنور، من الغابات والأمواج، إحتاج إلى أيام عديدة لكي يصل إلى آتنابشتم، غير أنّ الإبتعاد مع تجربة بيتهوفن كان في الغوص عميقاً داخل الذات، إنّه يعيش بين

Arab_Books

الآخرين، لكن في أقصى فقدان القدرة عن سماع أصواتهم، كان مسكوناً بالإصغاء للوحي الذاتي، إلى درجة أنّه كان على يقين بأنّه صاحب رسالة، وأنّ الموسيقى هي كلام الإله للناس، الإله الكامن في الذات، أقول: يمكنني جدّاً أن أسمع صدى الجدل الداخلي العنيف لبيتهوفن في الصراخ العالي للكورس داخل سمفونيته التاسعة.

ي ـ قطّاع طرق الحقيقة

ولأنّ المنفتح مرئي يحاول الآخرون أن يقطعوا عليه الطرق، لمنعه عن مواصلة الإيغال بعيداً، ربّما ليشغلوه عن غايته، تشويش الوحي الذاتي، أو فقط من أجل أن يحتكّوا به، ثمّة لقطع الطريق دلالات وقراءات عديدة، قد تبدأ بالمنع والكبح والتحجيم، لكنّها قد تصل أيضاً إلى درجة الاستجداء، وهذه الرتبة كانت ظاهرة في تجربة المتنبي، كانوا يقطعون عليه الطرق من أجل بيت شعر يحقّقون به وجودهم، وكثيراً ما كان يهرب:

«وأتعب من ناداك من لا تجيبه»

حاول صدام حسين عبر أذنابه استدراج الجواهري من أجل قصيدة، لكنّه فشل تماماً في ذلك.

ولأنّ قطّاع طرق الحقيقة كثيرون، ولأنّهم يقيمون في أماكن كثيرة أيضاً، أماكن لا نجاة للمنفتح من إقتحامها والخوض فيها (تلك هي إشكالية الإقامة في مكان)، كثيراً ما يخترقون عزلته، بضجيج أصواتهم لا بمعنى الكلمات، وهنا تنفتح نافذة أخرى لوعي

Arab_Books

آخر، لكنه مشوب بإحباط كبير، ذاك أنّ قطّاع طرق الحقيقة ليسوا كالأسماك التي تعلق بشبك السمّاكين، ما يحدث أنّهم يعلقون بالشباك ليصطادوا السمّاكين، تنقلب الدلالة فيتغيّر معها اتّجاه الدفّة، ليس إلى جهة، بل إلى الغرق.

توقّفت شهوّة التغيير لدى المتنبّي، فمنح ظهره للعالم:

«لا تلق دهرك إلا غير مكترث
ما دام يصحب فيه روحك البدن»

«وضاقت خطّة فخلصت منها
خلاص الخمر من نسج الفدام»

ولما كانت [الخطّة] هي الأمر، أو العمر، أو الحياة، أو، أو، فإنّه يشبهها بالمصفاة، حيث ينجو كالنقاء مما يعلق به، تماماً كما لو أنّ «الموجة تسير والبحر في مكانه» على حدّ تجربة [حسين مردان].

«غنيّ عن الأوطان لا يستخفّني
إلى بلدٍ سافرت عنه إياب»

من الإقامة في البلد، إلى الإقامة في القدم.

المنفتح بدوّي الطبع، لا يقيم إلا في التنقّل.

يصبح المكان سجنه والزمن أيضاً، يصبح العقل بحرا، تضرب أمواجه أطراف الجسد، فيبدأ بالتفتّت والتآكل. لكن، يبقى مستوى إصغاء المنفتح لحواره الذاتي هو المحدّد الأساس لرتبة انفتاحه ولدرجة إحساسه بالضيق أيضاً.

Arab_Books

الإنسان كائن مقامر

أريد أن أقول في هذا الفصل أنّ القمار موجود داخل كلّ خطوة نخطوها، بل هو هويّتنا الكامنة، الإنسان كائن مقامر، هذا هو اختلافه الحقيقي عن كلّ الكائنات التي تحيط به، لكنّه في أغلب الأحيان لا يدرك هويّته هذه، ويتقدّم كلّ فرد وكلّ نسق اجتماعي على طريقه بيقينية تدعو إلى التعاطف.

ولعلّ السؤال الأكثر حضوراً في ذهني الآن هو: هل يقامر الإنسان على حريّته أم على حياته؟ أيّهما أكثر حضوراً في ذهن المقامر، الحرية أم الحياة؟

فرق هائل بين أن تكون الحياة ضرباً من القمار وبين أن يكون القمار قراراً وجوديا، أحاول هنا تكريس القراءة على النماذج التي كان القمار في تجربتها الحياتية حاضراً كقرار وجودي صرف، أن يكون الاختيار لمنهج حياتي معين هو أقصى ما يمكن أن يتّخذه الفرد بوعي كامل وبقصديّة تامّة دون أن يشير ذلك إلى يقينية قاطعة في لعبة قائمة على الاحتمال.

وحتى لا نغبن الكائن الإنساني حقّه، علينا أن ننتبه قبل أتّخاذ أيّ موقف إزاء أيّ تجربة بشرية إلى أنّ الحاسّة نافذة تعمل على

Arab_Books

توسيع دائرة الأفق، تجعل الفرد أكثر اتّصالاً وتعالقاً بالكون، تمنحه القدرة أيضاً على الغوص في الأشياء لا كانعكاس فقط، بل الغوص فيها كما هي أيضاً، وعليه، فإنّ كائناً إنسانياً بحواس خمسة هو أكثر قدرة على الاختيار من كائن بحاسّة واحدة أو بثلاث حواس، وبالتأكيد فإنّ كائناً إنسانياً بست حواس سيكون أوسع الجميع انفتاحاً على الاختيار.

ليس هذا فقط، بل إنّ أيّ عوق جسدي سيقلّل أيضاً من سعة الاختيار، وبالتأكيد سيكون الجنون هو المنطقة التي تتساوى فيها السعة والضيق، فيمحو كلّ منهما قيمة وثقل الآخر، فلا هو في سعة، رغم خروجه على المحدّدات، ولا هو في ضيق رغم فقدانه القدرة على أن يكون كما يريد، أو أن يكون من يريد أن يكون. المجنون فاقد للإرادة، متحرّر من كلّ شيء.

أ ـ انفتاح دائرة القمار

تبدأ المقامرة عندما يزرع الشكّ أنقى بذراته في أخصب تربة للفرد، عندما يقف في زاوية ما من الحياة، في موقف منها، وعليه أن يتّخذ قراره الشخصي، وأن يتبنّاه، عندما تنمو أشجار القلق وتتنافس علوّاً، فتحجب أغصانها سماوات التنفّس، فتبدو الأرض والحياة متاهةً للخطى، ويتقدّم، وفي كلّ خطوة يزاحمه الشكّ، الشكّ لا في اتّخاذ القرار، بل الشكّ في اتّجاه القرار المأخوذ. القضية أوسع من الإنشغال بما وراء الحياة فقط، أوسع من رهان [باسكال]، أو [المعرّي] من قبله:

Arab_Books

«قال المنجّم والطبيب كلاهما
لا تُحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر
أو صحّ قولي فالخسار عليكما»

لم يكن قلق المتنبّي ميتافيزيقياً، بل وجودياً صرفاً. لم يكن سؤاله حول (الآخر/ الإله)، بل حول (الأنا / الذات). لم تنحسم (الأنا) لديه، ولم يكن الآخر (ضرورة) في عملية إنتاج ذاته، أو في قراءته لذاته، من هنا كان (الآخر/ الإله) خارج دائرة تفكيره، وخارج يوميّات حياته.

إن لم يكن وجود الإله ضرورة حياتية في تجربة الفرد أيّاً كان، إن لم يكن جزءاً من حواره الذاتي الخاص جدا، جزءاً من الجدل الذي يديم لدى الفرد حركة الأشياء والعالم من حوله أيضاً، إن لم يكن أساساً في علاقة تفاعل الكلّ مع وجود الفرد ذاته، فإنّ هذا الإله ينسحب تماماً من لوحة الحياة دون أن يترك أثرا، وبإمكان الفرد أن يواصل حياته اليومية بصورة منتظمة، منتجة وممتلئة أيضاً.

ب ـ الطمأنينة شكل من أشكال القمار

يختلف مضمون القمار من فرد لآخر، وتتباين أشكاله وأنماطه أيضاً، بل حتى مستوياته، قلق هتلر من غزو روسيا، وإقحامه الجيش في سباق مرير مع فصل الشتاء، لقد كان شبح خيبة نابليون حاضراً بثقل هائل لحظة التفكير. مقامرة صدام حسين في دخوله إلى الكويت، لوهلة يبدو الإستحواذ على آبار البترول حلاً لأزمة

Arab_Books

اقتصادية تطحن البلاد، هل كان تفكيره طفولياً أم ساذجاً، لكن، ألا يحدث الآن وتحت أغطية عديدة أن الآبار تضخّ نفطها في جيوب غير جيوب أهلها؟! هل كان بإمكان صدام حسين أن يلعبها بطريقة أخرى لو أنّه تأنّى قليلاً.

حين تكون أحد لاعبي الكوتشينو فلا تحرق أوراق يدك اتكاءً على تحوّلات إفتراضية، يبقى للواقع الاجتماعي سطوته على الممكن، أما حين تكون أنت ورقة واحدة في اللعبة كلّها فلا تجازف بأن تحرق ورقة أخرى في يد اللاعب الذي أنت في يده، بل إن كان لديك فسحة من الحرية لاتّخاذ قرار ما فلا تثق أو لا تطمئن كثيراً بإشارات عين اللاعب.

ليس بالضرورة أن يكون المقامر قلقاً نزقاً، فالطمأنينة أكثر أشكال القمار انتشاراً على الأرض ضمن التاريخ البشري، يمكننا هنا أن نأخذ اليقين الديني بكلّ مستوياته، أو اليقين الاجتماعي أيضاً كالإقامة داخل أعراف تمّ الإتفاق عليها، وبهذا تّتسع مساحة القمار لتشمل كلّ زوايا الحياة، وكلّ أنساقها.

ج ـ النظام والفوضى ورقتا القمار

كمدخل لفهم القمار يمكن اتّخاذ تجربة (آنشتاين) في الحياة نافذة أولى للقراءة عبر قوله: «لا أعتقد أنّ الإله يلعب النرد مع الكون»، لقد كان النظام الذي يغلّف الكون سبباً في دفعه لبلوغ هذه الإنتباهة، وغاب عنه أن يكون النظام بحدّ ذاته المقامرة، أن يكون

Arab_Books

النظام والفوضى شكلين من أشكال القمار، بل أن تكون الفوضى نظاماً آخر لم ننتبه له بعد، أو لم نحط به علما.

ينبغي أن نفهم النظام هنا بأنّه القانون أو التشريع الذي يجعل سريان الأشياء والأفكار يبدو طبيعياً، وأركّز هنا عل كلمة (يبدو)، لأنّنا في النهاية بأجمعنا نقيم فيها، أي كما لو أنّ الحياة لا يمكن أن تكون حياة بغير ما نتبنّاه من قيم نقيم فيها، كذلك يمكن إسقاط قوانين الفيزياء الحديثة على الكون من وجهة نظر آنشتاين التي تبدو فيها نظرية بطليموس خرافة على الرفّ، دون أن ننسى أن مركزية الأرض كانت هي الصورة الطبيعية للكون إلى بداية عصر النهضة.

يمكننا هنا أيضاً أن نتّخذ تشريعاً أخلاقيا كنموذج، كأن يبدو الزواج من أربع نساء أمراً طبيعياً من وجهة نظر المسلم الآن، تماماً، وبالدرجة ذاتها كما كان زواج المرأة من عشرة رجال يبدو أمراً طبيعياً من وجهة نظر العربي قبل الإسلام.

د ـ الرهان على إله علمي

عند العودة إلى آنشتاين نجد أنّ الإله صديق يمكن أن تثق به، ويمكن أن تقيم معه حواراً عميقاً بشرط أن تتعلّم كيفية طرح الأسئلة الذكية. لا تتأسّس العلاقة هنا على كمّ الحماية وكمّ الطمأنينة التي يوفّرها الاعتقاد، بل على كمّ الإنسجام مع عقل ووجود الإله. مع تجربة آنشتاين تنتهي صورة الإله الذي يخيف أو يمنح، وتحلّ محلّها صورة المهندس الذي يتفنّن في هندسة وبناء المعمار، أو

Arab_Books

صورة الموسيقار الذي لا يريد أن يترك شرخاً في اللحن الكوني الهائل.

حاول آنشتاين أن يفتح باب الحوار الذكي مع الإله بعد أن حرّره من الصورة التقليدية التي بثتها التوراة، طرح نفسه كآخر، لذا استوجب عليه ـ لاستحقاق هذه المرتبة ـ أن يلعب مع الإله بالأسئلة الذكية، بل إنه قاد الإله بعيداً عن المفاهيم الأخلاقية، أنهى مرحلة الإله الأخلاقي، جعله يدخل المختبرات والمراصد الفلكية، ضخّ فيه طاقة وقوّة أخرى لم يألفها الإله من قبل، حاول أنشتاين أن يسلّح الإله فيزيائيا، النقطة التي سخر بها محتضر ماركيز دي ساد من إله الكاهن. أعتقد أنّ تجربة رفع رتبة الإنسان إلى أن يكون صديقاً ندّاً للإله رائعة، المطلوب تفعيلها حياتياً، أن يقامر الجميع على أنّ العالم الآن يتحرّك تماماً خارج نطاق علم ومعرفة الآلهة القديمة بكلّ تمثّلاتها التوحيدية والوثنية.

هـ ـ الرهان على العقل

لقد كان الله هو الصاحب الحي الوحيد الممكن للمعرّي، ومع هذا بقي هذا الصاحب عسيراً على الفهم وفق قراءة المرجع والمؤسّسة الحاكمة، بل أنّ وجوده خلق أزمة نفسية حقيقية لدى المعرّي هي نتاج التناقضات التي تفرضها المرجعيّة أو المؤسّسة عبر قراءتها المتوارثة، الله كما تبثه المؤسّسة الدينية يحارب نفسه بنفسه، وكان المعرّي شاهداً على حرب الله ضدّ نفسه، إلى درجة أنّه قام عبر «لزومياته» بتشخيص كلّ التناقضات داخل الفهم المؤسّساتي

Arab_Books

لله، التناقضات التي تجعل الله يمحو بعضه بعضا، أو تجعله يعاني إنفصاماً حاداً. لقد راهن المعرّي على عقله بعيداً عن كلّ ما سواه، جعل عقله إمامه، وأقصى بعيداً كلّ مرجعية وكلّ كتاب مقدّس، كان المعرّي بلا كتاب مقدّس، وبإقامته في العتمة في البيت في الجسد تحرّر ولو قليلاً من نطاق المؤسّسة، هكذا، كان المعرّي يتقدّم داخل لغز مخبوء في ظلام دامس يتصادم فيه مع الكلمات والأشياء، بل إنّه لم يتردّد أبداً في أن يصيح في عمائه الكوني:

«أرى فلكاً ما زال الخلق دائراً
له خبر عنا يصان ويُخبأُ»

«وبصير الأقوام مثليَ أعمى
فهلمّوا في حندس نتصادم»

راهن المعرّي على أنّ الكلّ أعمى، وأنّ الحقيقة لا تزال لغزاً في ظلام دامس، وكلّ ما يمكن أن نتوصّل إليه هو أن يصطدم بعضنا ببعض في هذا العماء، الإصطدام هنا دلالة إختلاف في التوجّه إلى المعرفة.

أقول رغم إدراك المعرّي لانفصام هوية الله الموروثة فإنّه أخفق في الوصول إلى أنّ التناقض الذي يلفّ صورة الله ـ وفق ما تضخّه المؤسّسة ـ هو نتاج دمج إلهين في إله واحد، إلهين منفصلين لكلّ منهما هويّته الخاصّة، وأنّ عملية الدمج تمّت باحتواء صفات الاله المغلوب من قبل الاله الغالب، تماماً كما حدث مع أتباع كلّ إله على أرض الواقع، لقد إنقلبت معادلة إفلاطون القديمة، فالمثال هنا إنعكاس للواقع الحياتي وليس العكس. التناقض الحاصل في صورة

Arab_Books

الإله جاء نتيجة كون صفات الرحمن إندرجت ضمن صفات الله دون أن يمحو بعضها بعضا، وبذلك أصبح لدينا إلهاً واحداً بهويّتين غير متطابقتين، بعد أن تمّ احتواء الأطياف الحنيفية المختلفة كلّها بقوّة السيف تحت راية الإسلام.

و ـ قمار البداية التي لا تنتهي

كنت أتحدّث مع الفنان التشكيلي (حيدر عباس) عن القمار كمستوى معرفي يمكن أن يبلغه الفرد على صعيد التجريب فقال: «بالنسبة لي يبقى الدخول إلى اللوحة ضرباً من القمار، أبدأ ولا أدري إلى أين، لكنّني أستمر في الدخول، وأتوغّل في التيهان، بل إنّ النهايات ذاتها يمكن ألا تكون نهايات ذات اتّجاه، فأقلب اللوحة أو أبدأ الدخول فيها ثانية، وهكذا». قد تشير هذه التجربة إلى واحدة من قراءتين:

١ ـ التجدّد المستمر وفق «النشوء والإرتقاء» بحسب تجربة داروين، «الثورة المستمرة» بحسب تجربة تروتسكي، أو «ثورة داخل الثورة» بحسب تجربة دوبريه.

٢ ـ التيهان أو التقدّم بلا بوصلة، أن لا يكون في الذهن خطّة لعبور اللحظة، أو حتى لعبور الحياة، هكذا، أن تعيش حياتك باعتبارها بداية أولى، بداية بكر، وأنّ التاريخ البشري كلّه تاريخ احتمالات ممكنة لعبور الحياة ليس إلا، لكنّها لا تمثّل كلّ الاحتمالات أيضاً.

Arab_Books

ز ـ الرهان على قوّة الحقيقة ذاتها

وبالعودة زمنيّاً إلى تجربة غاليلو نجد أنّ القمار يأخذ شكلاً ومستوىً آخر أيضاً، فقد تنازل عن الحقيقة تحت قمع وتهديد الكنيسة، مراهناً في ذلك على قوّة الحقيقة ذاتها، هكذا، لا جدوى من تعريض الحياة أو النفس للقتل إذا كانت الحقيقة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى برهان، يمكن الإشارة هنا إلى مبدأ التقيّة عند الشيعة مثلا.

ضحك غاليلو على القساوسة الذين شعروا بالخوف والتردّد حين دعاهم إلى النظر إلى كوكب زحل وأقمار المشتري بواسطة منظاره، وقد كتب لصديقه كيبلر: «لو كنتَ معي لضحكنا معاً».

لم يكن بين القساوسة وبين الحقيقة سوى أن ينظروا فقط عبر المنظار، لكنّهم عجزوا عن ذلك، راهنوا على ما توارثوه في الكتاب المقدّس، واحتاج الأمر إلى أربعة قرون لتعتذر الكنيسة عما فعلت مع غاليلو، لكن بشروط أخرى، أن يقف العلم والعلماء عند نقطة الإنفجار الكبير، وألا ينشغلا في بحث آلية الإنفجار لأنّها «أمر الله»!

العقل البشري أحياناً ينمو ببطء سلحفاة.

السؤال هنا، هل كان بالإمكان أختزال القرون الأربعة التي استغرقها العقل الديني الكنائسي لاستيعاب حقيقة علمية؟ هل أنّ تنازل غاليلو كان سبباً في هذا التأخّر؟ هل يمكن إدانة موقف غاليلو أخلاقياً؟ ماذا لو أصرّ غاليلو على تبنّي الحقيقة كما هي دون أن يعتمد على قوّة برهانها؟ لكن، أليس قوّة البرهان بحاجة إلى أبطال

Arab_Books

أيضاً من أجل أن يخرج إلى النور؟ لقد حاول بريخت أن يصطف إلى جانب غاليلو، غير أنّ الأمر أكبر من أن يكون حلميّاً، الحقيقة تحتاج إلى سلطة، وكارزما البطل واحدة من آليات تفشّي الحقيقة، ما أراه في موقف غاليلو أنّه قامر على حياته وتنازل عن الحرية، بينما قامر جيوردانو برونو على الحرية وتنازل عن الحياة.

أبسط الحقائق ـ سواء أكانت علمية أو اجتماعية ـ بحاجة إلى تبنّي من أجل أن تنتشر، التبنّي هنا هو جعل الحقيقة واقعاً معاشاً، فرش عقلانيتها، وبالتالي المساهمة في فرش أرضية أخلاقيات جديدة، ذاك أنّ كلّ إضافة علمية هي في جوهرها تُحَقّق شرخاً في العلاقات الاجتماعية القديمة، يمكن أن يكون هذا الشرخ بسيطاً إلى درجة ألا يكون في البدء منظورا. الإضافة العلمية تزيد من سعة حريّة الإنسان، تجعله يمتطي ظهر الوقت، تقلب معادلة الهيمنة، تمنحه إحساساً جديداً بالإتّساع، قد يكون هذا الإحساس بسيطاً أو ضئيلاً، لكنّه بفعل التراكم يقود إلى تبنّي أخلاقيات جديدة خارجة عن، ومغايرة للأصل. الحقائق من أجل أن تنتشر لا تحتاج إلى جبناء، هكذا يكون إصطفافك إلى جانب الحقيقة ـ التي تراها أنت ـ بطولة.

ح ـ الديموقراطية أعلى تجلٍ للقمار

رتبة الوعي، تفاوت درجات الأميّة، الفجوة الواسعة بين أعلى وعي اجتماعي وأدنى وعي اجتماعي، الوعي كعلاقات اجتماعية وكممارسات وأنشطة حياتية يومية، كلّ ذلك سيقف عائقاً أيضاً أمام

Arab_Books

إتّساع إمكانية الاختيار، وبالتالي سيقف ذلك كلّه مع أو ضدّ حركة التاريخ البشري بشكل عام.

يمكن بسهولة هنا أن نقول أنّ الإنتخابات في النظام الديموقراطي هي أعلى تجلٍ للقمار بلغته التجربة البشرية، فعلى الرغم من الفسحة الحلميّة التي يتمّ فيها نفخ البالون، فإنّ إنفجاره كواقع يصبح أكثر حتميّة.

المضحك المبكي ونحن نوغل في القرن الواحد والعشرين أنّه لا يزال قلق سقراط القديم قائماً، ذاك أنّ تطبيق الديموقراطية في البلدان القاصرة في تجاربها الاجتماعية تعني صعود سلطة الرعاع، وحين أستخدم كلمة (قاصرة) فإنّني أشير إلى قصور في أشياء كثيرة، لكن، يتربع عليهن القصور في استيعاب الآخر، القصور في تقبّله، والقصور في إدراك أنّ الأغلبية لا تعني القضاء على الأقليّة. لقد أثبت (الربيع العربي) أنّ الشارع لم يكن مُهيّأ بعد لاستيعاب مفهوم (التعدّدية السلميّة)، أثبت الشارع أنّه قاصر لم يبلغ بعد سنّ الرشد، شارع خائف، مرتاب، لا يثق بالجديد، بل يعتبر الجديد تهديداً لأصالته، وأنّ النخبة المثقّفة أو الأقلّية التي قامت بثورات الربيع العربي قتلت نفسها برفعها لافتة الديموقراطية، لأنّها تحوّلت إلى الجرثومة التي تهدّد الأصالة، ذاك أنّ (الأغلبية) تشير إلى لحظة تاريخية قد تمّ التشبّع بها وتحوّلت بفعل الثلاثي سيء الصيت (التكرّر والتعوّد والتقادم) إلى طمأنينة خادعة. إنّ الوعي الجديد سيبقى أقليّة، سيقف النظام الانتخابي عائقاً أمام صعودها وتجلّيها.

وهنا، في هذه اللحظة تحديداً يتجلّى دور المنفتح، لا في

Arab_Books

الإصطفاف مع الأغلبية القاصرة، لكن في اصطفافه ورهانه على الوعي الممكن المسكوت عنه، الوعي الذي تتمّ إعاقته بالأغلبية، الوعي الذي يفتح نوافذ الحسّ الإنساني، يرفع من قيمة الإنسان ككائن له الحق في تغيير دفّة الحياة باتّجاه الأفضل، الحياة ليست حقّاً لفئة دون أخرى، إنّها الأحياء جميعاً يساهمون في خلقها ودعمها، هكذا:

«ما لا يحقّ لي

لا يحقّ لأحد»

دور المنفتح يكمن هنا في التحريض على تعجيل خروج العقول المؤجّلة داخل زجاجات وأحماض العلاقات الاجتماعية المتوارثة.

ط ـ قمار اللاجدوى

يمكن أن تصعد تجربة [النفّري] على مائدة البحث كنموذج آخر للمقامرة عبر تجربته:

«أوقفني في الاختيار وقال: كلّهم مرضى»

الموقف ذاته تكرّر أمامي، عندما ألحّت إمرأة عراقية على زوجها أن لا يُخطئ في إختيار الإسم المقصود في ورقة الإنتخاب، فجاء ردّه: «كلّهم خراء».

إنّه إدراك التيهان، والإحاطة باللاجدوى، فموقف الاختيار بحدّ ذاته خطأٌ يؤدي إلى اتّجاه، لكن ليس إلى حلٍّ اجتماعي، والقرار هنا

Arab_Books

مقامرة، لكنّها مقامرة عن وعي بها، أن تقتنع بشكل أو بمستوى من الحياة لا على أنّه الحلّ الأمثل، بل كطريقة عيش ليس إلا.

ي ـ الرهان على الخطأ الأكثر انفتاحاً

كما لو أنّها الإقامة في تجربة نيتشه: «المعرفة شكلٌ من أشكال الخطأ». لكن، مع بلوغ هذه الرتبة من الوعي، ولكي تستمر حيوياً ـ مؤثّراً ومتأثراً ـ في الحياة، عليك أن تتبنّى خطأً أكثر انفتاحاً، يجب أن يبقى لديك شيء من الاعتقاد الداخلي بأنّ ثمّة في خطأ الآخر شيءٌ من الصحة. لم يقل نيتشه بذلك، ولم ينتبه آنشتاين لهذه الرتبة من الوعي ـ رغم قوله بالنسبية ـ فتسرّبت إليه الطمأنينة من النظام، توقّف عند النظام رغم أنّه يصف الحياة «بركوب دراجة هوائية، ولكي تتوازن عليك أن تستمر بالحركة»! من هنا كما أعتقد دخلت (الأرَضَة / ستيفن هاوكنغ) إلى تفسيخ طمأنينته، فعلى حدّ تجربة الأخير أنّ «الإله لا يلعب النرد فقط مع الكون، لكنّه أحياناً يرمي النرد في أماكن غير مرئية».

ك ـ الرهان على إرادة النرد

أدرك المتنبّي عبثيّة الإقامة والتنقّل، هو في اللاجدوى.. في الحوض تماماً.. وهو معنيّ بزجاج الحوض، لذا فالقمار لديه لا يتجاوز حدود الإقامة في الجسد، لقد تجرّد كلّ اتّجاه من المعنى:

«ضربتُ بها التيهَ ضربَ القما
رِ إمّا لها وإمّا لذا»

Arab_Books

وإذا كانت «الغاية تلطّخ وجه الوجود» على حدّ تجربة [سبينوزا]، فإنّ العالم بأشيائه ـ عند المتنبّي ـ تَجَرَّدَ تماماً من هذه اللطخة، لكنّه أيضاً توقّف عن حمل مسؤولية خلق ذاته، أو حتى خلق جدوى لذاته، توقّف عن الحركة التي تمنح الموازنة، الخطورة هنا، حين تستمر حياة الفرد بينما يتوقّف هو عن البحث عن تبريرٍ منطقي لوجوده، لا برغبة التوقّف ذاتها لأنّها بلوغٌ وغاية أيضاً، بل بسلبيةٍ كابحةٍ تجعل الإقامة ضرباً من العبث ليس إلا.

هنا تصل الذات إلى أقصى خفوتها اجتماعياً رغم سطوعها المعرفي، ليس سوى إرادة النرد، لا القيمة، ولا الجدوى.

هذا التجرّد جعل العالم ـ في عين المتنبي ـ يبدو غبيّا تافها، لا يستحق الإلتفات إليه، لقد أراد فلم يقدر، فتوقّف:

«ذراني والفلاة بلا دليل

ووجهي والهجير بلا لثام»

حين تتوقّف الذات عن الرغبة في الوصول، وتتنازل عن مسؤولية خلق جدوى وجودها، ولا يكون هناك ما يدعو إلى إحياء هذه الرغبة وبعثها من سباتها، فإنّ العالم يصبح تابوتاً هائلا، والفرد ـ عبر حياته ـ يتنقّل داخل هذا التابوت (تجربة جان دمو إنموذجا).

ل ـ تمثّلات القمار في تجربة حياتية واحدة

يمكنني أن أرى في تجربة المتنبي كإنموذج أنّ القمار تمثّل بأكثر من صورة، فقد طرح المتنبّي نفسه في صباه لا [كنبي]، بل [كآخر]

Arab_Books

أكثر تفوّقا وعلوّاً، تمثّل القمار هنا بالبحث أو المواصلة خارج القيمة، وخارج الجدوى المتاحة:

«فما أحد فوقي ولا أحد مثلي»

لم يكن كائناً متكرّراً بدلالة الاستنساخ، خصوصاً وهو لا يجد من يشابهه في التوجّه والرغبة، يريد حياةً أخرى، لم تعد الحياة هي كلّ شيء بهذه الحياة على حدّ تجربة [توفيق صايغ]، لكنّه أمام حصار كوني هائل، تكالبت فيه عليه الكائنات والبشر، الجماد والحي، إنحنى مستوى القمار لديه أو تذبذب فأصبح بمستوى الأنبياء، «كصالح في ثمود» و«كالمسيح بين اليهود».

فلمّا دخل السجن، أدرك أنّه في الفخّ الأكبر، في حوض الزينة، أصبح تماما «أشقى ثمود»، فاستحقّ العالم أن يكون هباءً منثورا.

وقف ضدّه كلّ شيء، إبتداءً من الجسد، وصولاً إلى أبعد أطراف العالم. الكلّ كان عائقا أمام تحقّق الذات. ألا يكفي هذا من وجهة نظره أن يجعل العالم يستحق الفناء؟

ومع هذا بقي للذات من تمثّلات القمار ما تحقّق منها.

«ما نال أهل الجاهلية كلّهم
شعري وما سمعت بسحري بابل»

«ودع كلّ صوت غير صوتي فإنّني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى»

Arab_Books

لقد جاء في اللحظة المثلى ـ له ـ تماماً، بل لعلّ وجوده أحيا ثانيةً نصوص شعر ما قبل الإسلام، مرّة كلصٍّ غبي، ومرّة كخالقٍ نبي. تراكمت القراءات حول كلماته، لا في حياته فقط، بل ظلّ دويّه عالقاً، إنّها فاعلية الذات المضيئة في إحياء أشباهها أيضاً، إخراجهم من ظلمات النسيان والتغافل، إنتشالهم من العدم إلى الوجود مرّة أخرى، توهّج غاليلو منح الضوء لكوبرنيكوس ولجيوردانو برونو.

كان آخر تمثّل للقمار في تجربة المتنبّي أن يتنقّل كبيت شعر، من فكّ إلى فكّ، من جسد إلى جسد، ومن بلد إلى بلد، لكنّه تنقّل في [لا جدوى]، في [لا أحد]، في [لا بلد]، وظلّت الأرض تدور من تحته، وهو يدور عليها، لم يعد أيّ شيء يوحي إليه برغبة، أو بشهوّة، هكذا، تحوّلت الطرق إلى فكوك، وهو يتنقّل بين أنيابها، تراكم الصدأ على رغباته كلّها، ولم ينتظر «الكفّ التي تفرك الصدأ» على حدّ تجربة [حسين مردان]، على العكس تماماً أوغل في الذهاب بعيداً ووحيداً داخل خروجه على الغاية، كان منشغلاً بحياته ذاتها وليس بحقيقةٍ يمكن أن تفرض وجودها لاحقاً، شيء ما له علاقة بوجود الكائن الإنساني نفسه، بتجربته الخاصّة، فهمه ورؤيته للعالم.

وعند لحظته الأخيرة تماماً، كانت المقامرة قد بلغت أقاصي لا أباليّتها:

«وأنـى شـئـت يـا طـرقـي فـكـونـي
أذاةً أم نـــجـــاةً أم هـــلاكـــا»

Arab_Books

لم تعد ثمّة غاية، لقد تجرّد العالم من نهايته، وأصبح البقاء فيه ضرباً من العبث.

إنطفأ ألق قماره الأول:

«ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترقٌ جاران دارهما العمر»

لقد بلغت [التجربة الذاتية] عند المتنبّي، أقصى ذرى اللاجدوى قرب الحافّة النهائيّة للعمر، تجلّى ذلك في آخر نصٍّ له، وعلى حافّة النصّ تماماً، كآخر ما ينطق به فمه:

«وما أنا غير سهم في هواء
يعود ولم يجد فيه امتساكا»

لقد رأى المتنبّي ـ هنا تحديداً ـ الخروج من (تابو / تابوت) المعرفة، رأى الخروج من حوض الزينة، الخروج من لغة التعليم، أصبحت الإقامة في الحياة رحلة بلا دليل، ولا يصلح المقيم أيضاً أن يكون دليلاً لأحد، الحياة تجربة ذاتية يخوضها الفرد منفرداً بين الجميع.

في النهاية تتشابه الإقامة بين الناس والحيوانات والشجر، انفرادٌ يجري، يخرج، لكنّه خروج بلا غاية، كلّ ما هناك أن يطرح الفرد أقصى ما لديه من أسئلة ذكية، أسئلة تكسر زجاج القداسة.

لم يعد ثمّة ما يلطّخ به وجه الوجود، هكذا، الحياة البشرية أرض ألغام وثقوب سوداء، يمكن بسهولة أن تنفجر بالماشي عليها، أو تبتلعه تماماً، تخرجه من الحياة في الحياة، تجعله لا مرئيّا،

Arab_Books

والإنسان المنفتح، المتوهّج، هو الماشي على حبل موتور أبداً ما بين الرحم والقبر، وكلّ ما عليه أن يحمي نفسه بألا يقع في أفخاخ الغباء هنا وهناك، الأفخاخ التي تأخذه من ياقته ليكون حجر عثرة في طريق شبيهٍ آخرٍ ماشٍ على الحبل.

ومع هذا، ورغم كلّ صافرات الإنذار تهاوى ويتهاوى الكثيرون من على الحبل، سيستسهلون ـ كما استسهل مَنْ قبلهم ـ الإقامة الجاهزة في أحضان خادعة، وستبقى ـ إلى أمد ليس قصيراً ـ صافرة إنذار آنشتاين تصفّر بأعلى ما تستطيع: «إثنان لامتناهيان، الكون والغباء البشري».

Arab_Books

الفهرست

إشارات أوّلية عن التمرين وغايته ١٣

اللحظة الأولى: الإقامة في فم التيهان ٢٣

دخول سريع لأسئلة خارقة ٢٥

الانفتاح على البداية ٢٨

دماغ مؤجل ٣٧

الخروج إلى الذات، أو أنا وصلتُ إليّ ٤٣

آدم لا يفكّر بالعودة إلى الجنّة ٤٧

تولستوي وتعديل انحراف الأسطورة ٥١

أنا وسارتر وبودلير ٥٧

عودة إلى المتنبّي ٦١

الإقامة في (تبدّو) ٦٥

ضوء على تجربة مجاورة ٦٩

الخروج على التابو ٧٣

Arab_Books

إصطفاف غير مقصود ٧٥
اللحظة الثانية: تجربة السجن من التجريد إلى التجسيد ٨٣
تجربة منفتحة في وسط منغلق ٨٥
جدل النيّة والفعل ٩١
وعي فردي إزاء لاوعي جمعي ٩٥
الخروج من هاوية القناعة ٩٩
الإقامة في شرنقة التفرّد ١٠٥
ضرورة تفعيل نقد الدين ١٠٧
نفور يجعل الجدار هلامياً ١١١
الإقامة في ثمود ١١٧
الانفتاح الدلالي للسجن ١٢١
دلالة السجن في تجربة الجيل التسعيني في العراق ١٢٥
عودة أخرى مع المتنبّي ١٣٣
اللحظة الثالثة: النفوس الكبيرة إبنة سجون كثيرة ١٣٥
الإقامة في المُنْفَتَح ١٣٧
إشكالية الوصول المتأخر ١٤٣
قراءة من زاوية أخرى ١٤٩
(١) تحريف البداية الأولى ١٥١
(٢) لا إكراه في العيش ١٥٣

Arab_Books

أ ـ العالم لا يحتاج إلى جبناء ١٦٣
ب ـ فصل الجنس عن الدين ١٦٤
ج ـ الجنس شأنٌ شخصي ١٦٥
د ـ التكرار اليومي حالة من العماء ١٦٦
هـ ـ الناس تخلق أديانها على شاكلتها ١٦٧
و ـ لا إنسانية كلّ ما هو لا عقلاني ١٦٧
ز ـ كائنات ومفاهيم من وسخ الأظافر ١٦٨
ح ـ كلّ حالة لا تمثّل إلا نفسها ١٦٨
ط ـ حادثة متكرّرة ١٦٩
ي ـ الجنس يخلق اللغة ١٦٠
ط ـ توسيع دائرة الجنس ١٦١
ي ـ دور التكرار والتعوّد والتقادم في شلّ القدرة على الانفتاح . ١٦٤
(٣) الأفراد ليسوا نشازاً بل المجتمع ١٦٧
(٤) الطمأنينة فخ النائمين ١٧١
(٥) الثورة القصوى للمرأة ١٧٣
(٦) رغبة الجمع بالتفرّد ١٧٧
(٧) المبادرة بالمستطاع ١٧٩
الخروج إلى جهنم ١٨١
ملاحظة هامّة ١٨٧

Arab_Books

الإقامة خارج الحياة ١٨٩
أ ـ جدل الهويّة والمكان ١٨٩
ب ـ الانفتاح على الكون ١٩١
ج ـ تماهي السجن والرحم ١٩٢
د ـ انفتاح دلالة النزول ١٩٤
هـ ـ جدال على الحافة ١٩٦
و ـ السجن الإنفرادي وجهة الحوار الداخلي ١٩٩
ز ـ قراءة في تجربة مانديلا ٢٠١
ح ـ سجون بلا جدران أو فقدان الجدوى ٢٠١
ط ـ الإصغاء للوحي الداخلي ٢٠٣
ي ـ قطّاع طرق الحقيقة ٢٠٥
الإنسان كائن مقامر ٢٠٧
أ ـ انفتاح دائرة القمار ٢٠٨
ب ـ الطمأنينة شكل من أشكال القمار ٢٠٩
ج ـ النظام والفوضى ورقتا القمار ٢١٠
د ـ الرهان على إله علمي ٢١١
هـ ـ الرهان على العقل ٢١٢
و ـ قمار البداية التي لا تنتهي ٢١٤
ز ـ الرهان على قوّة الحقيقة ذاتها ٢١٥

Arab_Books

ح ـ الديموقراطية أعلى تجلٍ للقمار ٢١٦
ط ـ قمار اللاجدوى ٢١٨
ي ـ الرهان على الخطأ الأكثر انفتاحاً ٢١٩
ك ـ الرهان على إرادة النرد ٢١٩
ل ـ تمثّلات القمار في تجربة حياتية واحدة ٢٢٠
الفهرست ٢٢٥

Arab_Books

صاحب الكتاب في سطور

يرتكب التفكير لاحقاً ـ شعر ـ ١٩٩٣

صعّادات ـ شعر ـ ١٩٩٧

الرؤيا الآن ـ بيان شعري مشترك ـ ١٩٩٧

خارج على العقل ـ محاولة في السّيرة ـ ١٩٩٨

تقدم أيّها الخرف ـ ارتكاب في المعنى ـ ١٩٩٩

تحطيم الأصنام ـ محاولة في الصحو ـ ٢٠٠٠

عائلتي ـ الممكن قبل أوانه ـ ٢٠٠١

شتاء كامل الدسم ـ سيرة أفكار ـ ٢٠٠١

تبدّو ـ شعر ـ ٢٠٠٢

الخروج من تحت قبّة السلحفاة ٢٠٠٢

نهارات ليليّة ـ محاولة في اللغة ـ ٢٠٠٣

مسلمة الحنفي، قراءة في تاريخٍ محرّم ـ ٢٠٠٩

حريق ـ شعر ـ ٢٠١١

آلهة في مطبخ التاريخ ـ ٢٠١٢

تأجيل اللذة ـ ٢٠١٢

Arab_Books

Tele: @Arab_Books

هذا الكتاب

الغباء وحده الذي يُلقّن، لأنّه ـ وحده فقط ـ يصرّ على تكرار نفسه دائماً، من هنا أرى وأتحسّس الغباء كأكثر أشكال الثبات انتشاراً على الأرض.

المُنْفَتِح لا يُلَقِّنُ، يُحَرِّض فقط، ثمّة كائنات تحريضية تدفع الوجود البشري على الحركة، أشبه ما تكون بلافتاتٍ ضخمةٍ، وجودها احتجاجٌ متّصلٌ على كلّ أشكال القداسة والخضوع في العالم.

ISBN 978-9933350093